جمال البنا

إلهامات قرآنية





دار الفكر الإسلامي

195 ش الجيش - 11271 القاهرة

gamal_albanna@yahoo.com info@gamalalbanna.com

gamal_albanna@islamiccall.org

www.islamiccall.org www.gamalalbanna.com





إلهامات قرآنية

يقدمها

جمال البنا

دار الفكر الإسلامي

١٩٥ شارع الجيش ـ ١١٢٧١ القاهرة ـ هاتف وفاكس : ٢٥٩٣٦٤٩٤
gamal_albanna@yahoo.com
info@gamalalbanna.com
gamal_albanna@islamiccall.org
www.islamiccall.org www.gamalalbanna.com

رقم الإيـداع : بـدار الـكتب المصرية
٣٤٥٩ لسنه ٢٠١٢

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقدّمة

في مطلع عام ٢٠٠٩م طلبت جريدة «المصري اليوم» من الأستاذ جمال البنا أن يكتب عمودًا يوميًا بدءً من اليوم الأول من شهر رمضان ١٤٣٠هـ - أغسطس/سبتمبر ٢٠٠٩م ، وقد قام بذلك تحت عنوان «إلهامات قرآنية» وتكرر عامي ٢٠١٠ و٢٠١١ .

وظفرت « الإلهامات» بإعجاب القراء ، ورأى بعضهم طريقة جديدة للتعامل مع القرآن الكريم بعيدة عن طريقة التفسير المعهودة وكذلك عن الدراسات الحديثة التي تتناول جوانب من القرآن في دراسة طويلة موثقة .

ولما كانت دار الفكر الإسلامي حريصة على طبع ونشر كل ما كتبه الأستاذ جمال البنا ، فإنه ليسرنا أن نقدم «الإلهامات» إلى القراء .

وعلى الله قصد السبيل ،،،

القاهرة في محرم ١٤٣٣هـ
يناير ٢٠١٢ م

دار الفكر الإسلامي

دار الفكر الإسلامي
١٩٥ شارع الجيش بجوار مدرسة خليل أغا ـ باب الشعرية
يسرها أن تعلن لقراءها
عن إنشاء قسم لتوصيل الكتب إلى المكتبات والمنازل
حتى لا يشق الحصول عليها لمن يريدها
هاتف : ٢٥٩٣٦٤٩٤

المجموعة الأولى

إلهامات قرآنيـة

نشرت بجريدة «المصري اليوم»

رمضان سنة ١٤٣٠هـ

أغسطس/سبتمبر سنة ٢٠٠٩م

[١]

«أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ»(*)

إذا ذكر رمضان تبادر إلى أذهان الناس أنه شهر «الصيام» لأنه فيما تصوروا أن هذا هو أبرز ما في هذا الشهر، وما يميزه عن غيره من الشهور، فالناس ابتداء من فجره يمتنعون عن الطعام والشراب والمخالطة الجنسية، ويفطرون عند الغروب فيما يشبه «الزفة»، ويتلو ذلك ما ابتدعوه من مسلسلات وأفلام تجهد الإذاعة والتليفزيون نفسها قبل الشهر «الفضيل» بستة أشهر تقريبًا في الإعداد له وتحشد كل امكانياتها .

كلا .. أيها السادة .. إن رمضان هو شهر «القرآن»، لقد قالها القرآن نفسه :

«شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنْ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمْ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ» (البقرة : ١٨٥) .

ونفهم من سياق الآية أننا إنما نصوم رمضان لأن فيه نزل القرآن، وهذا هو سبب تمييزه عن الشهور قاطبة سواء في الإسلام أو غير الإسلام ، فالصيام موجود في كل الأديان، وله أشهره وأوقاته، ولكن رمضان وحده هو الذي أنزل فيه القرآن، ومن ثم أراد الله منا صيامه، فكأن الصيام احتفال وتقدير للقرآن، وشهر رمضان هو شهر القرآن خاصة، وكل شيء فيه يجب أن يكون للقرآن، وما نسلكه اليوم من حشد المسلسلات والأفلام والأغاني التي تملأ اليوم كله نهاره وليله ولا تدع لغيره وقتاً أو مجالاً هو النقيض فقد أراد الله أن نقضي هذا الشهر في تدبر القرآن .

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم» ، العدد (١٨٩٦) ، بتاريخ ٢٠٠٩/٨/٢٢م .

والقرآن هو الأساس الأصيل للإسلام، وإذا كان للرسول من دور كبير وهام فهو أنه حمله وبلغه للناس، وإذا كان له حق على الناس فذلك لأن القرآن قد نص على ذلك وحدده، فالأمر كله إلى القرآن، ومن يلتمس الهداية في غيره يضله الله، وأول من يقرر ذلك هو الرسول نفسه، فقد قال : «الحلال ما أحله الله في كتابه، والحرام ما حرمه الله في كتابه»، وقال : «لا يأخذن عليَّ أحد بشيء فإني لا أحلل إلا ما أحله القرآن ولا أحرم إلا ما حرم القرآن»، واعتبر أن الخوض في الأحاديث فتنة، وأن المخرج منها هو «كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم، هو الفيصل ليس بالهزل من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله» .

وقد «عشنا» و«شفنا» أناسًا يتهمون بأنهم «قرآنيون» .. فهل يعقل هذا ؟ هل يتهم أحد بأنه «قرآني»، وهذا هو فخر كل مسلم، فإذا كانوا يريدون أن يقولوا إن هؤلاء ينكرون «السُنة» فإن التعبير الذي اصطنعوه لا يقدم اتهامًا، بل يقلدهم فخارًا، وكان يجب أن يقولوا منكري السُنة، على أن هؤلاء لا ينكرون السُنة التي لابد وأن تكون بحكم تكوينها اللغوي عملية، وإنما هم ينكرون الأحاديث، أما السُنة العملية التي نقلنا عنها أداء الصلاة وإيتاء الزكاة ومناسك الحج فهم لا ينكرونها، فالوصف الصحيح لمن يقولون عنهم منكري السُنة هو أنهم منكروا الأحاديث .

ومعظم الناس يتصورون أنهم لا يفهمون القرآن إلا إذا رجعوا إلى التفاسير المعتمدة كالطبري وابن كثير والقرطبي حتى سيد قطب، فحذار .. ثم حذار لا تشرك بالقرآن أحدًا، ولا تبتغي بينك وبينه ترجماناً، فقد قال الله «وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ»، فإذا أردت القرآن هداية ونورًا وشفاء قلب، وسكينة نفس، فسيعطيك القرآن كل هذا، أما إذا أردت «المعلومة» فستأتيك

التفاسير بألوف منها، وهي تمثل اجتهادات وفهم المفسرين، ولكنها ليست بالضرورة هي القرآن، ولكنها تضل وتشتت وتميع بدلاً من أن تهدي وتلهم، إن عليك أن تقرأ القرآن فما فهمته ورضيته فخذ به، وما جهلته فدعه إلى خالقه، فإنك لست مأمورًا بأن تعرف كل كلمة جاءت في القرآن، وقد تحير عمر بن الخطاب حيناً في لفظة «وَأَبّاً»، فقال هذه الفاكهة عرفناها، فما هو الـ «الأَبّ» ثم عادت إليه سكينته وقال «هذا والله هو التكلف»، وما يضيره أن يجهل «الأَبّ»، وما يقدمه أو يؤخره التعرف عليه أو الجهل به .



[٢]
«يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ»(*)

الإيمان بالغيب أبرز خصائص الإيمان الديني، وهو الفاصل ما بين مجتمعات تؤمن به، وبالتالي تؤمن بالأديان، ومجتمعات تنكره، ولا تصدق إلا ما يكون موجودًا أو ملموسًا فتكفر بالأديان وتؤمن «بالطبيعة».

ورأس الغيب هو الإيمان بالله تعالى، وبأنه خالق هذا الكون ومدبره من أصغر ناموسة حتى أكبر مجرة، وقد صور القرآن الكريم الله تصويرًا بقدر ما يستوعبه العقل وبرهن عليه بدليل الخلق في أربع كلمات «أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ».

ويتبع الإيمان بالله، الإيمان بكتبه ورسله الذين يمثلون طريق هداية الإنسان في الحياة، وكذلك الإيمان بالدار الآخرة وبالثواب والعقاب في جنة أو نار.

والإيمان بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر يمثل «العقيدة» في الدين وهي جوهرته وناظمة عقده.

والإيمان بالغيب يوجب «الضمير».

ذلك لأن الأديان تأمر بالخير وتنهى عن الشر، ولكنها لا تملك في الحياة الدنيا عقابًا تفرضه على الشر ولا ثوابًا على الخير، ولكنها ترجئ هذا كله إلى يوم القيامة أي بعد الموت.

أي إنه لن يكسب في حياته إذا أحسن، ويمكن أن لا يعاقب إذا أساء.

فإذا لم يؤمن بالآخرة، وإذا لم يكن هناك ثواب ولا عقاب فما الذي يحول بينه وبين الانحراف واتباع هوى النفس؟

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم»، العدد (١٨٩٧)، بتاريخ ٢٠٠٩/٨/٢٣م.

الذي يحول بينه وبين ذلك العقل الذي يهديه إلى حُسن الحَسَن وقُبح القبيح، وإلى أن هناك خير وهناك شر.

ولكن ملكات العقل تتفاوت، وعامة الناس قد لا تكون ملكاتها قادرة على صد هوى النفس وإغراء الشهوة.

وهناك القانون الذي تسنه الدولة، ولكن القانون وإن كان يعاقب المسيئ، فإنه لا يثيب المحسن، فضلاً عن أن الدولة لا يمكن أن تخصص لكل مواطن رقيبًا يتابع تصرفاته حتى يلقي عليه القبض «متلبسًا بالجريمة».

وإنما الذي يصلح هذا كله هو الضمير.

والضمير معناه أن يرتدع الإنسان عن الشر، وأن يندفع للخير دون خوف عقوبة عاجلة أو كسب سريع في الحياة الدنيا، وإيماناً واحتسابًا بالله.

وهذا ما تقدمه الأديان بالدرجة الأولى.

على أنها لعلمها بالنفس البشرية وضعفها من ناحية، ولرغبتها في إقامة العدالة الكاملة جعلت لها يومًا آخرًا بعد النشر من القبور، وبعث الناس ونصب الموازين التي تقرر العقوبة على المعتدين والثواب للمحسنين.

وقد كانت الديانة المصرية القديمة هي أعرق الديانات قبل الإسلام في إبراز «اليوم الآخر»، وأكدت الثواب والعقاب والميزان الذي يزن «بالشعرة»، ومن هنا أطلق عليها المؤرخ الأمريكي بريستد «فجر الضمير».

ويتجلى أثر الإسلام في إشاعة وتعميق الضمير في إشاعة وتعميق فكرة الحرام والحلال.



ولكن الغيب يثير «إشكالات».

منها أنه لما كان غيبًا، فإن الله وحده هو الذي يعلمه، ولا يعلمه آخر حتى لو كان نبيًا رسولاً، وهذا يقتضي أن لا نسلم بشيء من الغيب إلا إذا نص عليه في القرآن الكريم وحده، ولا يجوز في هذا الصدد إقحام كلام المفسرين لأنه بالضرورة إنما هو كلامهم، وليس كلام القرآن ولا أن نقحم أحاديث المحدثين لأننا لا يمكن أن نحكم ظني الثبوت في قطعي القرآن.



[٣]

«لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ»(*)

في آية رائعة من آيات سورة البقرة يعلمنا القرآن درسًا عميقاً من أسرار الإيمان فيقول : «لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ» (البقرة : ١٧٧) .

الذي فهمته من الآية، وأنا هنا لا أقدم تفسيرًا للقرآن، ولا أقول أن هذا هو ما أراده القرآن على سبيل القطع، إنما أقول إن هذا هو ما فهمته، وقد يكون خطأ، وأكون أنا المسئول عليه ، أما القرآن فلا يمكن أن ينسب إليه أي كلام .

أقول إن الذي عبر عنه القرآن بأن «تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ»، إنما رمز به «للشكل» ويريد أن يقول لنا إنه ليس هذا هو الإلهام، إن الإلهام هو ما أشارت إليه الآية من الإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين، وأن يصدق هذا الإيمان بالإنفاق على «ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ» (أي الأرقاء والعبيد) .

ثم أضاف إلى ذلك أن يقيموا الصلاة وأن يؤتوا الزكاة «وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ» .

أمامنا إذن قائمة من الفضائل هي التي تمثل «البر»، وأنها تقوم على إيمان وعمل، لأن الإيمان لا يمكن التثبت منه إلا بدليل العمل،

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم» ، العدد (١٨٩٨) ، بتاريخ ٢٠٠٩/٨/٢٤م .

فما أسهل أن يدعى أحد الناس أنه يؤمن بالله وملائكته وكتبه واليوم الآخر، فإذا كان مع هذا الادعاء لا يفعل الخير، ولا يؤتي الزكاة، ولا يفي بالعهد، ولا يصبر على البأساء، فإن إيمان هذا إيمان مدخول يقوم على الادعاء ، ولا يثبت بالعمل .

ويلحظ أن جزءً من هذه الفضائل لا يتسم بصفة دينية مميزة، وإنما هي الفضائل لدى الناس جميعًا في كل الأديان، ومن غير الأديان أيضًا ، لأن مفردات التكافل الاجتماعي لا تتوقف على دين ، ولا تتغير ما بين دين وآخر، فالإيثار والإنفاق والشجاعة والوفاء بالعهد، كلها فضائل بحكم ذاتها يهدي إليها العقل كما يهدي إليها النقل وتدعو إليها كل النظم «العلمانية» كما تدعو إليها النظم الإيمانية، وأن ما أراده القرآن عندما صدر الآية بأنه «لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ»، هل يعقل أنهم إذا صفوا الصفوف، واستقبلوا القبلة وأقاموا الصلاة فلا عليهم بعد أن ينافقوا، وأن يكذبوا، وأن تغلب عليهم الأثرة .. إلخ، شتان ما بين الاصطفاف وتولي «القبلة» .. من ناحية .. وإساءة الخلق، وغلبة الأنانية .. إن هذه الأخيرة تذهب الأولى، وقد ضرب الرسول المثل بالذي يأتي بصلاة وصيام وحج يوم القيامة وقد ضرب هذا، وشتم هذا، واغتصب مال هذا فيؤخذ من حسناته بما يوازي ما فعل، فإن زادت أعماله السيئة أخذ من سيئات خصومه فطرحت عليه، كما أنه تحدث عن الجسد، فقال : «إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد، وإذا فسدت فسد الجسد، ألا وهو القلب» .

باختصار .. تريد الآية منا أن نعطي الأهمية الكبرى للب والجوهر وليس للشكل والصورة، وأن نعلم أن أي ترخص في الشكل بحكم الضرورة أو أي ملابسة أخرى لا يفسد العمل متى كان القلب حاضرًا والنية منعقدة، فإذا كان هناك حرص فليكن للخير، والعمل، وليس للشكل أو الصورة .



[٤]

«كُتِبَ عَلَيْكُمْ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ»(*)

تبرز بعض الكتابات الإسلامية القتال كما لو كان أمرًا محبوبًا ومرغوبًا، يُسعى إليه ويُرحب به، ولكن الآية تصارحنا أن القتال كان «كُرْهٌ لَكُمْ»، والآية هنا تلمس أمرًا طبيعيًا، إن القتال ليس هو الدأب العادي المألوف للحياة، إن الدأب العادي هو الحياة لا القتال .. والعيش لا الموت، وكل واحد يدخل معركة يعلم أن من المحتمل أن يموت فيها أو يخرج مبتور اليد أو مجروح القدم، ولم يكن الذين أنزل عليهم القرآن بعيدين عن هذه الاحتمالات فهو «كُرْهٌ لَكُمْ» .

ولكن الآية تمضي وتوضح «وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ» (البقرة : ٢١٦) .

إن القرآن هنا يكرر مبدءًا ذكره مرارًا أن الأمور ليست بالحب أو الكره أو الأماني، وقد نحب أمرًا دون أن يكون الأفضل أو الأمثل، وقد نكره أمرًا وفيه الخير لنا، فالحياة طويلة ومعقدة، ويمكن أن يحدث فيها كل شيء .

فالقتال وإن لم يكن هو الدأب العام ، إلا أنه حقيقة واقعة في المجتمع، بمعنى أنه تحدث بين الفينة والفينة، وعندما تحدث فإنها بالطبع يمكن أن تحقق النصر أو الهزيمة .

فلا يمكن لأي مجتمع أن ينفصل عن بقية المجتمعات، ولو أراد أن ينفصل فلن تقبل المجتمعات الأخرى هذا، فلابد من وجود علاقات خارجية قد تكون ما بين بلد وآخر أو قبيلة وقبيلة ثانية أو دولة ودولة مجاورة، وهذه العلاقات عادة ما تقوم على المصالح،

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم» ، العدد (١٨٩٩) ، بتاريخ ٢٠٠٩/٨/٢٥م .

وهذه المصالح متأرجحة وقد تحكمها الضرورة التي تحكمت في العربي حتى جعلته يقول :

وأحياناً نكر على أخينا　　إذا ما لم نجد إلا أخانا

فضرورات الحياة وتوازن القوى توجب على المؤمنين أن يكونوا أقوياء حتى لا يهزموا إذا فوجئوا بهجوم من آخر، ومن ثم فعليهم أن يتزودوا بالسلاح، وعليهم أن يقفوا موقف القتال عندما يتطلب الأمر ذلك .

بدون ذلك يمكن أن يتعرضوا لهجوم ولهزيمة تقضي عليهم أو تؤخرهم عشرات السنين .

هناك إذن ضرورات، وضرورات مؤلمة ، لابد من التسليم بها والانصياع لها، ومن هذه الضرورات «كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ»، والصياغة لا تدعو إلى قتال، ولكنها تؤكد أن القتال هو مما لا يمكن دفعه في المجتمع البشري لما أشرنا إليه من عوامل .

وهناك لفتة هامة هي أن معظم الآيات التي جاءت عن القتال إنما جاءت لأن المؤمنين إنما هم فريق من العرب ترك ديانته الوثنية وآمن بالإسلام وتريد القبائل «فتنة» هؤلاء المؤمنين عن دينهم، أي ردهم عن دينهم بالقـــوة وإعادتهم إلى الوثنيـة، ولكن المؤمنين يرفضون، ويكون عليهم وقتئذ أن يصدوا القتال بقتال، ومن هنا فإن القتال المذكور في القرآن هو في حقيقته دفاع عن حرية العقيدة حتى لو اتسم بطابع الشدة التي هي جزء من طبيعة الحرب، وهذا هو السر في أن كثيرًا من آيات القتال تذكر أن مبررها «حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ»، أي لكي لا يفتن أحد من دينه، وأن يترك أمر الدين لله تعالى يحكم فيه يوم القيامة، كما تؤكد ذلك آيات أخرى عديدة .



[٥]
«القرآن دستورنا»(*)

قلنا إن رمضان شهر القرآن .

ذكّرنا هذا أن في هذه البلاد هيئة عريقة جعلت أول جملة في شعاراتها «القرآن دستورنا»، وهذه الهيئة ذات الثمانين عامًا قد تداعت عليها القوى تداعى الأكلة على قصعتها وهي صابرة محتسبة .

وهذا التداعي لم يبدأ من اليوم ولكنه بدأ من سنة ١٩٥٢م، وشهد أسوأ فصوله عام ١٩٥٤م وعام ١٩٦٤م، وقد اشتدت الوطأة عليها أخيرًا .

أريد أن أقول للإخوان أليس في هذا ما يدعوكم إلى إعادة التفكير والنظر، لعله يقودكم إلى أن خطأ قد حدث، أو أن ظروف وضرورات قد فرضت نفسها على الهيئة وأدت إلى ما انتهت إليه .

الذي أعلمه يقيناً أن نقطة الإبداع التي جاء بها الإمام الشهيد حسن البنا، ونذر حياته كلها لتحقيقها هي أن يكون «الإسلام منهج حياة» .

وقد أوضح في أكثر من مناسبة أو وثيقة أن الخطة لهذا تبدأ ببناء الفرد الملتزم بالقرآن بحيث يحقق ما أراده القرآن منه أن يكون مواطناً صالحاً، وأن يعنى بصحته فلا يسمح للإفراط أو الانحراف أن يؤثر عليها، ويعنى بعقله فيعمله، ويقرأ ويتدبر، فإذا أصبح هذا الفرد زوجًا كان عليه أن يكون زوجًا صالحًا، وعليه أيضًا أن يتعاون مع زوجته لتكون زوجة صالحة، ثم أمًا صالحة، ومن ثم تنشأ الأسرة المسلمة .

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم» ، العدد (١٩٠٠) ، بتاريخ ٢٠٠٩/٨/٢٦م .

وتنفسح الدائرة من الأسرة إلى الحي، فليس الحي إلا مجموعة أسر، ومن الحي إلى المدينة، ومن المدينة إلى القطر حتى تغطي الدولة كلها .

كانت هذه هي الخطة التي أرادها الإمام الشهيد، والتي تتفق مع رسالة الإسلام التي هي الهداية، وأن الأنبياء رسل يبلغون الدعوة، ولكن بعض الملابسات والتطورات أوقفت أو انحرفت بالمسار السليم للإخوان .

رجوت من الإخوان في كتابي «ما بعد الإخوان المسلمين»، وناشدت في المقال الافتتاحي لكتاب «مسئولية الدعوة الإسلامية»، «إخواني الإخوان»، إعادة النظر، فلا يجوز أن لا تستفيد البلاد من إمكانات وطاقات هذه الهيئة الكبيرة، ومن مصلحة الهيئة نفسها أن تنهي وضعها الشاذ الذي يشلها، بل ويضيعها .

إن وجود مثل هذه الهيئة الكبيرة دون عمل ودون وضع سليم معترف به أمر يضر ويسيء إلى جميع الأطراف، فهو يجعل الدولة تخصص إمكانيات ضخمة لمراقبة وتحييد هذه الهيئة، وتجميد نشاطها وهو يضعها موضع شاذ غير معقول وغير مقبول .

ولو أنها قررت أن تعود إلى الخط الأساسي الدعوي والتربوي لخدمت الأمة أعظم خدمة، ولحققت الخط الإسلامي الأصيل، خط الدعوة والتربية وبناء الأفراد، ولحررت الدولة من أن تخصص إمكانياتها للترصد لها .. باختصار تستريح ويستريح الجميع .

لقد كان «الحكم» لعنة الدعوة الإسلامية منذ أن قال الخوارج «لا حكم إلا لله»، فقتلوا عليٌ بن أبي طالب، وأنهوا الخلافة ليقوم الملك العضوض، حتى جمال الأفغاني الذي خدعه الحكام (خديوي مصر وشاه إيران وخليفة آل عثمان) بالوعود المعسولة ثم نكثوا ونكلوا به، حتى السياسة التي ابتلى فيها محمد عبده، فخرج منها يقول لعن الله السياسة وكل ما جاء من ساس ويسوس .

كان أبو بكر ـ وهو من هو ـ يستعيذ من غمرات الدنيا ويسأل الله السلامة منها .

وهل السياسة إلا غمرات الدنيا ؟!

فلماذا يضع الإخوان المسلمون أنفسهم فيها ، وقد أعفاهم الله ، فليتركوها .

ولنقل فيها ما قال الرسول عن العصبية : «دعوها .. فإنها منتنة» .



[٦]

«وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ»(*)

هذا جزء من آية تقول «وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتْ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ» (البقرة : ٢٥١) .

هذه الآية تضع أساس قانون اجتماعي عظيم أطلق عليه القرآن «التدافع» ومادة الدفع تضم المعنى الرئيسي دون أن تتعرض لما تتضمنه تعبيرات أخرى مثل الصدام أو التناقص أو الصراع فتعطي المعنى طابعًا لا يتطلبه، بل يسيء إليه .

المهم .. الانبعاث بنشاط نحو الهدف، هذه إحدى وصفات القرآن للمجتمع الناهض .. الحي .. المتحرك والمندفع نحو هدفه .

وقد أعاد القرآن استخدام هذا التعبير في آية ضرب بها المثال لهذا التدافع هي الآية ٤٠ من سورة الحج «وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ»، فلولا أن يندفع أناس ليحموا الكنائس والصوامع والصلوات لاستطاع آخرون أن يندفعوا إليها ويدمروها .

إن من أكبر سوءات المجتمع - كما يرى القرآن - الغفلة، أي أن يُغفِل أفراده الملكات التي وهبها الله لهم «وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ» (الأعراف : ١٧٩) .

فالقرآن يرى أن هؤلاء الغافلين أسوأ من الأنعام، لأن الله تعالى أعطاهم ملكات فعالة أغفلوا استخدامها، كأنها لا توجد .

وتعطينا الآية مؤشرًا أن الدفع المطلوب هو استخدام هذه الملكات استخدامًا رشيدًا لا يمكن أن يحيف على مصلحة آخر، لأن الآيات التي تضبط المجتمع البشري عديدة، وكلها تحقق

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم» ، العدد (١٩٠١) ، بتاريخ ٢٠٠٩/٨/٢٧م .

تكاملاً، وهو التكامل الذي لم يفهمه المستشرقون أو الناقدون للقرآن ورأوا أن بعض الآيات تتناقض مع الأخرى وأنه متضارب، لأن فكرة التكامل التي تؤدي إليها الآيات كلها كانت غائبة عنهم، وهذه الآيات تحققه، فهناك آيات توجب القتال عندما يكون القتال دفاعًا عن النفس أو الكرامة أو حرية المعتقد، وهناك آيات توصي المسلم بالرحمة والسماحة ما أمكن إلى ذلك سبيلاً، أي أن يعمل الإنسان ملكاته كلها لتحقيق الخير ولاكتساب الحسنات وللنهضة بالمجتمع، ولكنها لا تتضمن بالضرورة تحيفاً على الحقوق، وهناك آيات تفرض التزامًا على الحواس بحيث لا تتجاوز حدها «إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً»، وهناك آيات تحض الإنسان أن لا ينسى حظه من الحياة الدنيا، وآيات تمنح الذين يريدون حرث الدنيا ما يريدون، وفي الوقت نفسه فإنه يحض على احتساب الآخرة وابتغاء رضوان الله بحيث لا يكون في سلوكه شطط ولا إفراط أو تفريط .

والمسلم القرآني .. ذلك المسلم الذي يلتمس الهداية والأدب والسلوك من القرآن يلم بهذا كله ويحاول أن يأخذ نفسه به، ثم هو بعد هذا كله يعلم أن الله تعالى رحيم وأن رحمته تسع كل شيء لأنه يضاعف الحسنة، وأنه يتعامل مع الضعف البشري بما يطهره ويكفره بإعمال الحسنات، وبهذا يحيا في سلام ورضا نفسي، لا يحزن لما يقع فيه من فشل، ولا يغتر بما وصل إليه من نجاح، يحاول أن يحقق «القصد»، وبالطبع فإنه في معظم الحالات قد لا يحقق هذا تمامًا، ولكن يكفيه أن يحاول وأن يخلص في محاولته بحيث يحصل على قسط من التوفيق يحول دون تخبطه في الضلال «فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ» (فاطر : ٣٢) .



[٧]
«وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ»(*)

هذا جزء من آية وردت عن بعض أحكام المرأة، وهي تقرر مبدءًا عظيم الأهمية في العلاقة ما بين الرجال والنساء، هذا المبدأ هو أن لَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ، أي أن لهن من الحقوق مثل ما عليهن من الواجبات، وقد أعطت كلمة «بِالْمَعْرُوفِ» قسمة هامة يبرزها القرآن عادة عندما يتحدث عن العلاقات ما بين الرجل والمرأة هي أن يكون ذلك «بِالْمَعْرُوفِ»، وتعطي الكلمة مزيجًا من الخير ومن العرف، ولم يقل عن الحرام والحلال، إذ توجد درجات ترتفق على الحرام والحلال من مكروه أو مندوب، ولأن العلاقة بين الرجل والمرأة لها حساسية خاصة، وقد أراد الله تعالى أن تقترن «بِالْمَعْرُوفِ»، ومن ثم يستبعد الصخب والضغط والإكراه والانتقاص و«الخناق»، فهذه ليست من المعروف في شيء، فالعلاقة ما بين الرجل والمرأة في الرضا والغضب في الزواج والطلاق يجب أن تتم «بِالْمَعْرُوفِ» .

على أن الآية تقدم إضافة «وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ»، وقد حارت الأفهام في هذه الدرجة، والقرآن ـ على عادته ـ يعطينا المعنى العام وليس القصد المحدد، وليس هذا بالطبع عجزاً، فالقرآن وهو أصل الإعجاز لا يمكن أن يقربه عجز ، وإنما هي الحكمة الإلهية التي تسمح للفكر الإنساني أن يعمل قواه في فهمها في ضوء الأوضاع المختلفة والمتفاوتة، وقد غفل الناس أن القرآن قد نزل من ألف وأربعمائة سنة، وما يقرره لم يأت ليعطل ما وضعه الله تعالى من سنن يسير عليها المجتمع، ولكن ليدعم هذه السُنن التي فيها حرية الفكر والتسليم بالتطور وما يعنيه هذا من اختلاف في الأفهام .. إلخ، لهذا اكتفى بأن يقول إن هناك درجة يفضل بها الرجال

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم» ، العدد (١٩٠٢) ، بتاريخ ٢٠٠٩/٨/٢٨م .

النساء، قد تكون في زمن معين القوة العضلية، قد تكون في مجتمع أوروبي أن المرأة حتى الآن عندما تتزوج تحمل اسم زوجها وتنسى اسمها واسم أبيها وتصبح «مسز» أو «مدام» لزوجها، وقد يكون الإنفاق وشواهد الحال تنطق بذلك، لست أرى غضاضة في أن يتميز الرجل على المرأة بدرجة واحدة، وقد فضل الله تعالى الأنبياء بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وفضل المؤمنين بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ، مما يوحى بأن التفاضل من ضرورات المجتمع وأنها عملية تنظيمية، وواقع المرأة في أمريكا مثلاً حيث نالت المرأة أعظم قسط من الحرية، يوحي بأن الرجال لهم على النساء «دَرَجَةٌ».

والقرآن واقعي وعملي، وهو لا يحابي أحدًا، لا الرجل ولا المرأة ولكن يحكم بالواقع، كما أن هذا الحكم لا ينفي وجود استثناءات تفوق فيها المرأة الرجل، وقد تكثر هذه الاستثناءات، ولكنها تظل مع هذا استثناءً، علمًا بأن القرآن استبعد التفاضل ما بين الرجل والمرأة، ولم ينص على فضل للرجل على المرأة، فقال: «وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا» (النساء: ٣٢).

وأعتقد أن المرأة لا ترفض أن يكون للرجل درجة، ففي كل عمل يتعاون فيه اثنان يفترض أن يتوفر لأحدهما درجة على الآخر ليمكن الانتهاء إلى قرار عند الاختلاف، وبدون ذلك تظل القرارات دون حسم، وفي الوقت نفسه فإن النص على أن تتم العملية كلها «بِالْمَعْرُوفِ» تستبعد الاستئثار والتحكم، ولو كانت القضية تسوية ما بين ثلاثة لقلنا إن أغلبية الاثنين تفصل في اتخاذ القرار، أما عندما تكون التسوية بين اثنين، فإن «الدَرَجَةٌ» هي التي يمكن أن تفصل عند الاختلاف، وبهذا يصدر القرار.



[٨]

«وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ»(*)

الآية ١٤٨ من سورة البقرة التي تقول «وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ».

ترسي عددًا من المبادئ والأسس، فعندما يقول «وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا»، فإنها تقرر حرية الاختيار وحرية الإرادة واعتراف القرآن بذلك، وأن هذا من حق كل فرد فلا يقولن أحد ما هي مؤهلاته حتى يتخذ وجهة ويوليها ؟ القرآن لا يسأل عن المؤهلات، فهذه أساليب «بورجوازية» تقليدية يعود أصلها إلى أن كل واحد له وضع ومستوى يجب أن لا يتعداه، وأن عليه أن يسأل «أهل الذكر» ويقلد الأئمة الأعلام، وهذا ما ترفضه الآية، فهي دعوة صريحة مطلقة للاجتهاد، فلا يقال إن غير المؤهل سيقع في أغلاط، فليكن .. فإنه سيتعلم من أغلاطه، وإقدامه على التجربة وثقته في نفسه في حد ذاتها تستحق «الحسنة» حتى لو لم يصادفه التوفيق.

لا تصل أي كلمة إلى ما تصل إليه «لكل» في الاعتراف بالفرد ومنحه حريته وإرادته وفتحه الباب على مصراعيه للانطلاق.

وينبني على هذا وجود التعددية وأنها لا تتنافى مع فكرة «الوحدة» الإسلامية، لأن التعددية إنما تكشف عن بُعد من أبعاد الوحدة الإسلامية لا يمكن أن يعرف إلا بالتعددية، وقضية مثل الوحدة الإسلامية لابد وأن يكون لها أبعاد عديدة متفاوتة، بل إن القرآن ليس فحسب يتقبل ذلك، بل إنه يأمر به، بل ويعطيه طابع «الاستباق».

وهذا الاستحسان والأمر به يعود إلى أن القرآن يكره الغافلين الذين لا تحركهم آيات الله في الآفاق، وفي أنفسهم مثارات العجب والدهشة والإعجاب والتفكير الذي يدفع للعمل وللانطلاق.

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم»، العدد (١٩٠٣)، بتاريخ ٢٠٠٩/٨/٢٩م.

هناك إذن اعتراف بحرية المنطلق للأفراد، بل هناك حث عليها، ومهما كانت اختلافاتكم فإن مصيركم إلى الله الذي يأتي بكم جميعًا .

إن هذه الآيـة يجب أن يضعها كل واحد على صدره أو يضعها نُصب عينيه، لأنها تمثل الانطلاق، والحرية، والمبادرات الفردية، وأن يتم هذا كله في صورة سباق، وما في السباق من بذل أقصى الجهد للفوز بالأولوية .

وعندما يتحقق هذا فإن الأمة لابد أن تتقدم وأن كل واحد يبذل غاية جهده، وهذا هو أكبر فارق بين أمم متقدمة، وأخرى متخلفة تعيش في سبات عميق، وإذا تحركت لم تعمل، وإذا عملت لم تُحسن أو تبذل الجهد .



[٩]
«آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا»(*)

في القرآن الكريم آيات محكمات، وفيه أيضًا أُخَر مُتَشَابِهَاتٌ، وقد عبر عن هذه الحقيقة، كما حددت الموقف الأمثل إزاءه الآية ٧ من سورة آل عمران «هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُوا الأَلْبَابِ».

ما هي هذه الآيات المتشابهات ؟ لقد ظن البعض أن القرآن عندما عرض لوقائع الأديان، أو قص قصصًا مثل أصحاب الكهف ويوسف لم يذكر أسماء، ولا أعداد، ولا تاريخاً إلا في القليل النادر، وقد يشير إلى العدد ولكنه لا يذكره صراحة أو يذكره صراحة ويورد عليه ارتفاقات، ظن بعض المفسرين أن هذه تدخل الآيات في باب المتشابه فشمروا عن ساعد الجد ليبينوا كل ما أبهم في القرآن.

ولكن الحقيقة غير ذلك.

نحن نعتقد أن كل الآيات التي جاءت عن ذات الله تعالى وأشارت إلى أقواله، وكل الآيات عن الغيب من جنة أو نار، ثواب وعقاب، هي من المتشابه، لأن اللغة تعجز عن تصوير طبيعة الله تعالى وذاته وكنهه، فاللغة لا تملك إلا عالم الشهادة، أي ما في الوجود المادي لهذه الحياة الدنيا على الكرة الأرضية، أما عالم الغيب فإنها تعجز عنه، وبالذات طبيعة الله تعالى وإشاراته إلى «يَدِ اللَّهِ» أو «عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى» أو «وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا»، «وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي» .. الخ.

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم»، العدد (١٩٠٤)، بتاريخ ٢٠٠٩/٨/٣٠م.

فهذه الآيات تنسب إلى الله تعالى «استواءً وتكليمًا»، ولكن هذه الآيات من المتشابهات لأنه لا يمكن أن نتعرف على شيء من ذات الله إلا بأن يُقدم بشيء يعرفه الناس، وعلى كل حال، فإن البلاغة العربية اقتضت استخدام المجاز عندما يراد تعميق المعنى وترسيخه، فيقولون عن رجل ما إنه بحر في السخاء أو أنه أسد في الشجاعة، وليس هو بحرًا أو أسدًا، ولكنه رجل من لحم ودم، ولكن هذا المجاز يعطي معنى في الكرم أو الشجاعة يجاوز بكثير مجرد كلمة شجاعة وكرم، وقد لجأ القرآن إلى المجاز في كل ما يتعلق بذات الله تعالى، على أن هذا لا يعد تأويلاً أو تحايلاً؛ لأن القرآن الكريم نفسه استخدم تعبير «اليد» بالنسبة للقرآن وبالنسبة للعذاب وللرياح «وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ» (الأعراف : ٥٧)، وقد تكررت في سورة النمل الآية ٦٣، «إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ» (سبأ : ٤٦)، «إِنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ» (الأحقاف : ٣٠)، «وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ» (سبأ : ٣١)، «قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ» (الأحقاف : ٣٠)، ففي كل هذه الآيات لا يمكن أن تشبه اليد التي جاءت فيها «يد» باليد في الإنسان.

وتشير آية آل عمران إلى أن الآيات المتشابهات هي ما يستهدفه الذين في قلوبهم زيغ فيعمدون إليها ابتغاء تأويلها، وهم في الحقيقة يريدون الفتنة، وهذا ما ينطبق على التشدد الوهابي؛ لأنهم يقولون بأن لله تعالى «يدان تليقان بكماله ولا تشبهان أيدي البشر»، فادعوا أن له يدين وهذا هو التجسيم بعينه حتى لو كانتا لا تشبهان أيدي البشر، أما المعتزلة وغيرهم المتفلسفين والمستشرقين فإنهم أرادوا تنزيه الله عن أن يكون له جارحة يتكلم بها وذهبوا إلى أنه لا يتكلم ولا يسمع .. الخ، فنفوا عنه القدرة، ونسى الفريقان أنه لا يعلم تأويله إلا الله.

قال القرآن «وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُوا الأَلْبَابِ»، ولو قدر لنا أن نسمع القرآن من شفتي الرسول لأدركنا أنه وقف عند «وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ»، لتبدأ جملة جديدة «وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا»، ولكن العرب عندما كتبوا الآيات في المصحف لم يكونوا يلمون بأدوات الترقيم والتشكيل والنقطة والشولة .. إلخ، ولذلك فإن بعض الناس يجمعون ما بين الله والراسخون في العلم، وهذا فيما نرى خطأ، فالله وحده هو الذي يعلم الغيب .



[١٠]
«لا إكْرَاهَ فِي الدِّينِ»(*)

في مجال حرية الاعتقاد، أي شيء أفضل من هذا النص القاطع الصريح المطلق «لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنْ الغَيِّ».

مع وجود هذه الآية لا يتصور وجود نص يسمح بإكراه أو يضع قيودًا على حرية العقيدة؛ لأن القرآن لا يضرب بعضه بعضًا.

ولا يمكن القول أنها «منسوخة».

فمثل هذا النص الصريح القاطع لا يمكن أن ينسخ.

ولو فرضنا جدلاً أنها منسوخة، فماذا تفعلون في عشرات الآيات التي تؤكدها وتقرر حرية العقيدة مثل:

- «وَقُلْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ» (الكهف: ٢٩).
- «وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَنْ فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ» (يونس: ٩٩).
- «قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ» (يونس: ١٠٨).
- «قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * وَلا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدتُّمْ * وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ» (الكافرون: ١-٦).

وقد ذكر الله تعالى الردة مرارًا فما رتب عليها عقوبة دنيوية، وإنما ترك أمرها لله تعالى يوم القيامة.

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم»، العدد (١٩٠٥)، بتاريخ ٢٠٠٩/٨/٣١م.

- «وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ» (البقرة : ١٢٧) .
- «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمْ الضَّالُّونَ» (آل عمران : ٩٠) .
- «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْراً لَمْ يَكُنْ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً» (النساء : ١٣٧) .
- «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ» (المائدة : ٥٤) .

بعد هذه الآيات البينات، هل يجرؤ أحد على أن يقول إن القرآن لا يقرر حرية العقيدة، وأنه يجبر الناس على الإيمان ؟ هل هناك من يقول نأخذ بكلام عكرمة (وهو مولى ابن عباس): «من ترك دينه فاقتلوه»، ونرفض كلام جبريل عن الله رب العالمين .

هذا لا يكون .

ولا جدال في أن هذا حديث مكذوب؛ لأن الرسول لم يقتل أحدًا لمجرد الردة، وإنما قتل من جمع مع ردته قتلاً أو حربًا على المسلمين، وقال هذا ابن تيمية نفسه .

وقد ارتد على عهد الرسول عدد من أصحابه، فما استتبع أحدهم بعقوبة .

فكيف يقول الرسول هذا الحديث الركيك ؟

أليس الأولى أن نقول إنه من وضع الوضاع الصالحين ـ كما أطلق عليهم ـ الذين أرادوا الدفاع عن الذين بغير ما أنزل الله، فظنوا أن هذه الموضوعات تكمل الدين وتحميه .

والله لا ينصر دينه أو يحميه إلا بما يقرره هو ، وليس هم .

[١١]
«فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ»(*)

بأي رحمة من الله .. بأي قدرة وقوة .. وهب الله رسوله تلك الصفة التي يندر أن توجد في الرؤساء .. والكبار .. والحكام وهي صفة «اللين»، فاللين صفة تحمل طابعًا حميميًا، يعيش في الإطار الطبيعي للأسرة ويتبدى ما بين أعضائها. والعهد في الرؤساء والكبار أن يحيطوا أنفسهم بستار من الكبرياء والتعالي والأنفة، وطبيعة القيادة تتطلب تميزًا ، ومفردات هذا التميز من وجود الحرس ومن علو المقعد، ومن الفخامة في المبنى .. الخ .

وما كان شيء من هذا يمكن أن يوجد، أو يقترب من مكان الرسول ومن مقعده، فكان يجلس على الأرض كبقية العرب وحوله أصحابه، كما يجلس الأب وسط أبنائه، يأتيه الأعراب الجفاة، بعضهم ينادي بصوت عال، فيبتسم ابتسامة تذوب أمامها غلظتهم، ويأتي أحدهم فيتبول في المسجد فيقول «لا ترزموه»، وتأتيه الجارية فتأخذ بيده وتسير به في طرق المدينة، فإذا زارته سيدة بسط لها رداءه ويقول إنها كانت تزورنا أيام خديجة .

وتوضح الآية أنه لو كان «فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ»، وانظر إلى الإعجاز في صياغة «فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ» فإنها تعطي أقوى صورة للمعنى .

علاقات مفعمة بالمحبة، للمؤمنين والمؤمنات قائمة على اللين لعامة الناس، فسبحان الله الذي مكن لرسوله هذا المنهج، والذي أدبه هذا الأدب الذي يعجز عنه أشهر فلاسفة التربية .

وتتوالى الحبات الثمينة للآيـــة «فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ» .

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم» ، العدد (١٩٠٦) ، بتاريخ ٢٠٠٩/٩/١م .

هنا في هذه الكلمات المعدودة يرسم القرآن أساسًا لسياسة تعامل القائد مع جمهوره بالطريقة الدينية .. الإنسانية .. وليست بالطريقة الإدارية أو القيـــادية الجافة، بدءًا من اللين والعفو، ثم الاستغفار، ثم استشارتهم «فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ».

إن تفصيل هذه التوجيهات يحتاج إلى كتاب لا يقتصر على أنه يعالج موقف القائد من الجمهور .. الحاكم من المحكومين، وكيف تُتجاذب ما بين العفو عنهم، والاستغفار لهم، ومشورتهم .. ثم تأتي «القفلة» المحكمة «فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ».

ما هي طبيعة لين الرسول وعفوه واستغفاره؟ ما هي حدود ومدى مشـورتهم في الأمر؟ ماذا تعني بالضبط «فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ»، إن استيعاب هذا يتطلب كتابًا، ومع هذا فإن ما نخرج به من الآية من انطباع يظل أفضل من أي شرح آخر، لأنها تضم فيما تضم كحبات المسبحة «اللين»، والعفو والاستغفار جنبًا إلى جنب العزيمة التي هي الخاتمة، والتي تعتمد في الوقت نفسه على «التوكل على الله».

كل هذا في سطور معدودة، وهذا هو القرآن.



[١٢]

«وَلا تنازعوا فَتفْشَلُوا وَتذهَبَ رِيحُكُمْ»(*)

أشك في أن المسلمين يقرأون القرآن، بل أقطع أن كبارهم على الأقل لا يقرءونه .. ولو كانوا يقرءونه لقرأوا بالطبع آيات عديدة قارعة تندد بالتنازع، وتدين التفرق، وتوضح للمسلمين أن التنازع والتفرق هو السبيل للفشل؛ ولأن تذهب ريحهم، فلا تحرك ساكناً .

إنها لمفارقة مذهلة أن نجد أن المسلمين الذين أكد كتابهم على الوحدة والاتفاق والألفة والتعاون هم ـ على وجه التحديد ـ أشد سكان العالم اختلافاً وتنازعًا، رغم أن هذا التنازع قد جمد كل صور العمل والبناء التي كانت قائمة، وأوجد حربًا أهلية، لا غالب ولا مغلوب فيها ولكنها تستمر وتستعر وتأكل بعضها بعضًا، والجميع مغلوبون فيها .

خلافات وحروب في الصومال البعيدة عن مجالات التوتر العالمي والتي كان يمكن أن تكون من أسعد الدول فهي تشرف على مصايد أسماك غنية، ولديها أكبر عدد من قطعان الماشية، وأرضها خصبة ترويها السماء، وكل شيء فيها يجعل شعبها وديعًا .. سعيدًا .. متفقاً مع غيره .

واليمن التي لديها عشرات الأنواع من الأعناب، والتي نجد فيها الجبال والسهول، وتشرف على البحار، وبعيدة كل البعد عن مناطق التوتر العالمية، ما الذي دهاها حتى انشق جزء كبير من أهلها على سلطتها، وجعل سلطتها تحاربها كما لو كانت عدوًا جاء يحاربها من الخارج .

والسودان الواسع الفسيح الذي يشقه النيل وتترامى على ضفتيه الأراضي الخصبة ويتسع لأضعاف سكانه، لماذا يحارب جنوبه شماله مع أن المصلحة واحدة، فالجنوب يختنق دون الشمال والشمال

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم ، العدد (١٩٠٧) ، بتاريخ ٢/٩/٢٠٠٩م .

يفقد امتداده دون الجنوب، وكيف تصل دارفور إلى ما وصلت إليه بعد أن فشلت كل جهود الصلح ووساطة الوسطاء .

في الصومال، واليمن والسودان بعد أن أدت الحروب لهجرة الناس من البيوت وأماكن القتال، أصبحوا لاجئين يبيتون في خيام وكانوا ينامون في بيوت ويأكلون من معلبات المعونات التي تصلهم بعد أن كانوا يأكلون من أرضهم ومن طبخهم، في كل هذه الحالات تسمع صيحات هيئات الإغاثة تستغيث بالعالم لمزيد من المعونة بعد أن كادت مواردها تنفذ مع أن هنا الملايين من الجوعى والمشردين ونشاهد صور السيدات الشقراوات يقدمن المعونات بيد يمتزج فيها الرثاء بالاحتقار لهؤلاء الناس الذين لا يعرفون كيف يديرون أمورهم .

وأعجب نزاع، وأكثره أسى ومأساوية هو ما بين فتح وحماس هذا النزاع الذي فشلت على صخوره وساطات مصر المتكررة للجمع بين الأخوين المتمردين، كلها تفشل إما للعناد والمصالح الذاتية ، وإما لتدخل دول تكسب من هذا الصراع، ولو عقل الفريقان لعلما أنهما يضيعان فرصة ذهبية ويجنيان على شعب فلسطين، لأن العالم يضغط على إسرائيل لنقل المستوطنات وللدخول في مفاوضات، وإسرائيل تتذرع بهذا الصراع لتتجنب المفاوضات ولتستمر في غرس المستوطنات .

فكل هذا وهم يؤمنون بكتاب يقول :

«وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ»



[١٣]
«وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ»(*)

الآيات التي تبين مهمة الرسول وصلاحياته ومدى سلطته عديدة في القرآن، وتكاد تكون مكررة، وهذه الكثرة، وهذا التكرار مغزاه أن الموضوع له أهمية خاصة، وأن هناك احتمالات للتجاوز، أو إســـاءة الفهم، فاقتضى الأمر من القرآن أن يبين، ويوضح، ويحدد، وأن لا يكتفي بذكر ذلك مرة أو مرتين، ولكن مرارًا وتكرارًا حتى لا يبقى ظلاً لشك أو وجودًا لشبهة ، فالرسول - رسول - ومهمة الرسول هي التبليغ، وما قد يتطلبه هذا التبليغ من إيضاح حتى لا يخطئ أحد في الفهم أو يسبق إلى فكرة، معنى لا يريده القرآن، وهكذا فالقرآن يذكر لنا :

- «مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ» (المائدة : ٩٩) .
- «فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ۞ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ» (الغاشية : ٢١-٢٢) .

وآيات أخرى عديدة لا يتسع لها المقام .

ما هو سر هذا الإلحاح من القرآن على هذا المعنى وتكراره وتأكيده ؟

السر إن الداعية، بحكم كونه داعية يود لو أن الناس جميعًا آمنوا بدعوته، وبقدر إيمانهم بقدر ما يتملكه الرضا ، فإذا انصرفوا عنه تملكه الحزن، وقد يدفعه حرصه على هداية الناس إلى وسائل وأساليب تمثل إغراءًا أو ضغطاً ، أو قد يقبل تنازلاً أو ترخصًا حتى يكسب أكبر عدد ، وواضح بالطبع أنه لا يريد إلا الخير، وأي خير أفضل من هداية أكبر عدد ممكن من الناس .

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم» ، العدد (١٩٠٨) ، بتاريخ ٢٠٠٩/٩/٣م .

القرآن الكريم يخترق أعماق النفوس ويستبعد بكل قوة مثل هذه الأحاسيس لأنها تخرج عن دوره، فدوره إنه رسول يبلغ، يبشر، وينذر، ولكن لا يتعدى هذا أبدًا ولا يؤثر عليه سلوك الناس تجاهه، وإقبالهم عليه، أو انصرافهم عنه .

ولا جدال أن الداعية يكاد يكون مفطورًا على الرغبة في تحقيق الهداية، ولكن القرآن يعلم أن تحقيق الهداية له شروط ومقتضيات وتكتنفه عوامل وأوضاع .. الخ، فضلاً عن أن الإنسان لا يخضع لمقتضيات العقل قدر ما يستسلم لنوازع العواطف وعلاج هذا كله يخرج عن إطار تبليغ الرسالة ويقذف به في غمرات الدنيا .

إذن كيف يكون الموقف إذا رفضوا دعوته ؟

إن القرآن يؤكد للرسول «وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَـلاغُ»، «فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ»، «وَمَا عَلَيْكَ أَلاَّ يَزَّكَّى»، «فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنْ الْمُشْرِكِينَ»، «وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ» .

ليس للرسول سلطة على الناس، ليس جبارًا، ولا مسيطرًا، ولا حتى وكيلاً، إن هو إلا رسول .

ليس الرسول حاكمًا ، ولا جابيًا ، ولكنه هادي .

وفي هذا يكمن فخره وتتبلور رسالته ويظل دائمًا حاملاً لرسالته .. داعيًا إليها .. لا يشرك بذلك شيئاً آخر يشغله ويورطه، والأمر بعد ليس أمره، إنه لا يملك الهداية حتى لأحب الناس إليه «إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ» .

الرسول يدعو .. والله يهدي .. وهو أعلم بمن يهتـدي ومن تتحكم فيه ظروفه فيأبى .

«وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَارًا» .

[١٤]
«مَثَلاً مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا»(*)

هذه الآية تجعل شعر الإنسان يقف عندما يفكر فيها ، وهي تقول : «إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ» (البقرة : ٢٦) .

عندما أفكر أن الله تعالى الذي خلق هذا الكون العجيب الذي لا مثيل له، أوجد المجرات الهائلة التي لا حد لها والتي تكون الأرض بالنسبة لها كحبة رمل من صحراء أو قطرة من بحر، والذي خلق الحياة والموت، ولا حد لحكمته أو قدرته لا يستنكف أن يضرب المثل ببعوضة .

هل يريد الله تعالى أن يعلمنا درسًا أن لا نتعالى على أصغر الحشرات ؟ بل أن نأخذ منها العبرة ونضرب بها المثل .

هل يريد الله أن يعلمنا أن الإعجاز، والقدرة، والعظمة يمكن أن تتجلى في حشرة، كما تتجلى في المجرات والأكوان العظيمة ؟ إن شركة بيونج يمكن أن تصنع طائرة تنقل ألف واحد، ولكن لا يمكن أن تصنع طائرة في حجم بعوضة، فأين تضع محركاتها ؟ وكيف تختزن وقودها ؟ فضلاً عن أن الحشرة تتجه وتهتدي لما يحفظ كيانها في حين أن الأكوان مُسَخرة .

يُفترض أن يعلم المؤمنون به، فيقولوا «أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ»، أما الجاهلين فيلجأون إلى المماحكة «مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً» .. إلخ .

لقد أردت أن أعلم كيف يفهم مفسرونا هذه الآية، فرجعت إلى الطبري وابن كثير فرأيت روايات ساقطة وأوقاويل تافهة، وكلام لا معنى له، فنحيت المجلدين في سخط .

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم» ، العدد (١٩٠٩) ، بتاريخ ٢٠٠٩/٩/٤م .

الذي يسمع الآية بسمعه، وقلبه، وعقله، سيكتشف بعض إعجازها ثم يأتي التدبير فتتضح الصورة، فلا يكون في حاجة إلى من يفسرها له لأن تفسيره لن يتضمن إلا أقاويل وروايات، في حين أن تدبرها يجعله يحس إعجازها ويتلمس معانيها وتكون النتيجة أن يعظم الله تعالى ويسبح بقدرته، ولا يحتقر صغيرًا ولا يستبعده؛ لأن الله تعالى يمكن - كما يقول المثل الشعبي - أن يضع «سره في أضعف خلقه»، وتأمل كلمة «سره» فإنها لمست المحك.



[١٥]
«وَرُسُلاً لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ» (*)

في أصحاب كل دين ميل دفين للاستئثار والاستحواز واستبعاد الأديان الأخرى، كأن هذه الأديان ستشاركهم في «فطيرة» الدين .

ولكن الأديان نفسها لا ترى الدين «فطيرة» تكون من حق أصحابها وحدهم أن يأكلوها، ويرفضون أن يشاركهم آخرون، فالدين الحق أفكار وقيم، والأفكار والقيم والمثل لا تنفد، ولا ينقصها كثرة المهتدين بها، وهي تقدم هدايتها للجميع دون أي حساسية .

ومن تطبيقات هذه الفكرة أننا نحصر الأديان في الأديان الثلاثة السماوية «اليهودية، والمسيحية، والإسلام»، وقيل إن الدستور المصري لا يعترف بغيرها .

ولكن هذه الفكرة التي يبدو فيها شيء من الانفتاح تخالف ما ذهب إليه الإسلام ويرى فيها تحديدًا لأمر لم يحدده ؛ لأن القرآن يرى أنه ما من أمة إلا وكان فيها نذير، والآية ١٦٤ من سورة النساء «وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلاً لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا»، فأثبت أن هناك رسلاً لم يذكرهم القرآن .

من هم هؤلاء الرسل ؟؟!!

هذا ما لا يمكن أن نقطع به لأن هذا يكون نوعًا من المصادرة على القرآن أو افتئاتًا عليه، ولو أراد الله أن يُعْرَفُوا لعرَّفنا بهم .

الفكرة التي أرادها القرآن هو أن لا يترك أهل كل دين يستسلمون لمشاعر الحرص والاستحواز والتفاخر بالأديـــــان أو

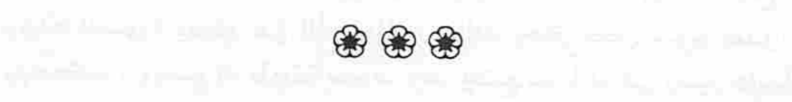
(*) نشر بجريدة «المصري اليوم»، العدد (١٩١٠)، بتاريخ ٢٠٠٩/٩/٥م .

التكسب من وراء الدين؛ لأن الله تعالى أرسل رسلاً لا تعرفونهم، فلا تدعون أن غيركم لم يرسل إليه، وأنكم وحدكم أصحاب الرسالة .

وإذا قال أحد الناس إن «بوذا» أو «كونفشيوس» أو «أفلاطون» رسول، فنحن لا نملك النفي إلا إذا كان في أقوالهم أو أعمالهم ما يخالف ما يفترض أن يتوفر في رسل الله من كمال .

والأفضل لنا أن نضرب عن مثل هذا التساؤل، وأن نعكف على أنفسنا أعمالاً لقول الله «لا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ»، فإذا كان هو هدى القرآن بالنسبة لمن قطع القرآن بضلاله، فما بالك وليس لدينا ما يقطع بضلال أمثال بوذا وأفلاطون وكونفشيوس ؟

وإذا كانت أمة من الأمم تتخلق بخلائق جميلة، وتتصف بقيم سامية، وتهذب سلوكها في الحياة، فلماذا لا يكون ذلك عائدًا إلى رسول أرسله الله إليهم خاصة وأننا لا نعدم أحاديث مبهمة عن قادة لم يهتموا بفتوح عسكرية، ولكنهم استهدفوا هداية الناس، وتوجيههم للخير والحب والحرية والمعرفة، وهذه هي مهمة الأنبياء والرسل .



[١٦]

«وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْساً إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا»(*)

التفكير في هذه الآية - بالصيغة التي أنزلت بها - تضعنا في صميم قضية فكرية عقيدية عويصة.

فظاهر النص يوحي بوضع قيد على المشيئة الإلهية هو الأجل، وأنه إذا جاء هذا الأجل، فلن يؤخر الله نفسًا.

والمسلمون جميعًا يوقنون أن الله تعالى يفعل ما يشاء، وأنه لا راد لإرادته، وإرادته مطلقة وماضية إلى يوم القيامة ولا يمكن وضع قيد عليها.

وهذا صحيح، ولكن الآية لا تتنافى معه، والحل الذي يبدد الشبهة هو أن الله تعالى هو الذي وضع الأجل، فالأجل جزء من إرادته وهو عندما يلتزم به فإنما يلتزم بما وضعه.

وهناك آيات عديدة تقرر هذا المعنى مثل «إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ».

وما يتردد في نفوسنا من شبهة تعود إلى أننا نتصور أن الله تعالى يتصرف في هذا الكون كما يتصرف ملك مطلق في دولته، يحكمها بإرادته الخاصة، ويطلق القرارات حسب ظروفه .. إلخ، وهذه الصورة بعيدة عن الله تعالى، فالله يخلق كل شيء بقدر، وبحكمة، ويضع له طريقة سيره، وهو يضع سنناً لكي يسير عليها المجتمع، فمن أخذ بها حقق الفلاح، ومن تنكر لها حقت عليه الضلالة، وهو يترك للأفراد حرية الاختيار ليحاسبهم يوم القيامة.

الكون إذن محكوم بالسنن والمبادئ، والأصول التي وضعها الله تعالى له، يستوي في ذلك المجرات والمخلوقات من حيوانات أو إنسان وما يميزها أن بعضها مُسير والبعض الآخر مُخير.

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم»، العدد (١٩١١)، بتاريخ ٢٠٠٩/٩/٦م.

ومما يدخل في هذا أن القرآن يستخدم تعبير «كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ» كالتي جاءت في «كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ»، «كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ» (الأنعام : ٤٢ـ٥٤)

وهو تعبير يريد الله تعالى أن يقرب لنفوسنا طريقة عمله، وكذلك أن يصف نفسه بأنه «لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً» :

- «فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ» (التوبة : ٧٠) و(الروم : ٩) .
- «وَمَا ظَلَمَهُمْ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ» (النحل : ٣٣).
- «وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ» (العنكبوت : ٤٠) .

وكيف يمكن أن نتصور أن يظلم الله وهو الحق والعدل ، إن الله تعالى لا يلعب بالنرد ـ كما يقول أينشتين ـ ولكنه يدبر الأمر ، ويضع السنن والأصول والقواعد التي انبثقت عنه والتي أخذت طابع الكمال الذي يجعلها صالحة لكل زمان ومكان ويدخل في هذه السنن القيم كالحرية، والعدل، والمساواة، والمعرفة، والخير .. إلخ .

إننا في كثير من الحالات لا يمكن أن نصل إلى مستوى فهم وإدارة الله تعالى لهذا الكون العظيم، وأسوأ ما في الأمر أننا نشبهه بحكم البشر، فإن أعقل البشر وأحكمهم لا يمكن أن يسمو إلى أدنى حكم الله، وإن علينا أن نتعلم منه بقدر ما تتسع له أفهمنا ، وعلينا أن نقول «سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ» (البقرة : ٢٨٥) .



[١٧]
«وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ»(*)

ما أن تقوم الأديان حتى يتصدى لها فريقان :

الفريق الأول : الحكام والأغنياء وكبار الملاك والتجار الذين يستفيدون من الوضع القائم إذ يضع في يدهم السلطة والثروة، فمن الطبيعي أن يتمسكوا به وأن يضيقوا بأي تغيير، ويريدون أن يستمر هذا العهد أبدًا، فما إن يظهر دين جديد حتى يتصدو للتو لمقاومة هذا الدين، فالأديان بالنسبة للطبقة الحاكمة أعظم خطر يمكن أن يظهر وأن يزلزل قوائم عهدها ليس فحسب لأنه تغيير كاسح، ولكن لأن هذا التغير يستهدف تدمير ملكهم ويسلم هذا الملك إلى غيرهم .

والفريق الثاني : هو الذي أطلق عليهم القرآن الكريم تعبير «الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا»، وهذا التعبير يوحي أنهم لم يكونوا أصلاً ضعفاء، ولكن النظم الحاكمة توصلت إلى جعلهم ضعفاء، بتأثير ما فرضته عليهم من ضرائب ثقيلة ذهبت بمكاسبهم وأرباحهم من عملهم بحيث أصبح لا ييسر إلا القوت الضروري، بل هذا القوت لا يتيسر إلا بالعمل الشاق ليل نهار، فإذا أبدوا ضيقاً أو رفضًا سلطت عليهم قوتها القاهرة الجيش والبوليس والسجون والمحاكم التي تحكم بشرعة القوي، فلم يبق أمامهم إلا الاستسلام .

تلك في الحقيقة هي قصة الحكم ما بين سادة ظالمين وجمهور مستضعف .

يظهر القرآن الكريم الدين هنا قوة تقلب الوضع ، وتنفخ في هؤلاء المستضعفين قوة إيمانية تجعلهم يتصدون، وإنما تم هذا لأنه هو ما أراده الله، وجعل دينه وسيلة لتحقيق ذلك، ولكي يرث هؤلاء المستضعفون الملك العريض من السادة المستبدين .

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم» ، العدد (١٩١٢) ، بتاريخ ٢٠٠٩/٩/٧م .

إن سورة القصص تعرض لنا بأسلوب القرآن المعجز قصة الحق الذي كان ضعيفاً، مستسلمًا حتى تملكته قوة الأديان، بينما يتملك التخبط والذعر هذه الطبقات الحاكمة فتأتي أفعالاً تؤدي إلى نهايتها .

وكأن الله تعالى يرمز إلى القدر الذي أراده أن تأفل دولة الظلمة وأن تسود دولة المستضعفين .

سورة القصص تبرز لنا الديــــن كقوة تحرير، يتملك المستضعفين فيعملون جميعًا، سواسية، تحت إمرة نبي يمثل القيادة الربانية فيكتب لهم النجاح والتوفيق .

«إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ❖ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمْ الْوَارِثِينَ ❖ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ» .

لقد حاولت الجماهير خلال تاريخها الطويل أن تحرر نفسها، وأن تتوصل إلى ما يجعل ضعفها قوة، ولكنها قلما نجحت، وفي الحالات التي نجحت فيها، شاب نجاحها نقص حال دون أن تهنأ بانتصارها، أما ثورة الأديان فقد توفر لها أفضل عناصر نجاح ثورة : النظرية ممثلة في الإيمان بالله، والقيادة ممثلة في الأنبياء وإرادة التغيير الشاملة التي تنهي عهدًا لتبدأ عهدًا، وأخيرًا المشاركة الجماهيرية بشكل مباشر وفعال .

وما ترويه لنا سورة القصص إنما هو الفصل الأول من تحرير الأديان للجماهير، وسيأتي فصل آخـر عندما تحرر المسيحية الجماهير من إسار قبضة الإمبراطورية الرومانية القـوية العاتية بفرسانها وطرقاتها وقوانينها، والسيف الروماني القصير العريض، أما الفصل الأخير في تحرير الأديان للجماهير فهو ثورة الإسلام التي جعلت من القبائل المتنازعة أمـــة تحمل الكتاب والميزان إلى الحضارات الطبقية الشائخة، الإمبراطورية البيزنطية والإمبراطورية الفارسية .

[١٨]

«لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ»(*)

هل هناك ما هو أعذب من هذا النداء، أو أجمل وقعًا أو أكثر شمولاً ؟ إنه يقول للذين «أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ» أن «لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ» .

لقد ادعى بعض الذين يريدون تشوية الإسلام إن الله في الإسلام جبار عتي؛ لأنه عرض لصفحة من جبروته لأكابر المجرمين الذين لا يفهمون إلا لغة القوة والجبروت حتى يعلموا أن فوق جبروتهم جبروت أعظم سيحاسبهم ويوقع عليهم الجزاء، أما بالنسبة للناس جميعًا ، فالله هو الرحمن الرحيم الذي يغفر الذنوب جميعًا .

هذا «كارت بلانش»، وهو تعهد مطلق لا استثناء فيه ولا شرط عليه، إن الله تعالى يغفر الذنوب جميعًا .

حقاً إن المفسرين يفيضون القول في هذه الآية، وهذا من حقهم، ولكن يظل النص أعظم منهم جميعًا، ويظل شاملاً قاطعًا إنه ما من ذنب يمكن أن يجاوز رحمة الله .

القضية أن الله تعالى يريد أن يعرفنا على بعض صفاته، ولكن قد لا نفهم ذلك أو نقدره حق قدره، وكيف يمكن أن نقدر والله تعالى يقول «وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّموَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ» .

فالله تعالى يعرض لنا رحمته التي وسعت كل شيء، ولكن هذا أمر خاص به ويعود إليه، أما عندما يراد تفعيل هذه الرحمة على المجتمع الإنساني فيفترض أن يتم ذلك في إطار المبادئ والأسس والسُنن التي وضعها الله تعالى نفسه لإدارة المجتمع، ومن أهمها إثابة

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم» ، العدد (١٩١٣) ، بتاريخ ٢٠٠٩/٩/٨م .

المحسن ومعاقبة المسيء، لأن الطبيعة البشرية لا يمكن أن تعالج إلا بهذا المعيار، ولأنه بدون ذلك فقد يتخذ بعض الناس من رحمة الله التي تغفر الذنوب جميعًا تكأة للإسراف في الذنوب مادام الله تعالى يغفرها .

إن الآية تعرض قسمة من قسمات الله تعالى الرحمن المطلقة التي لا يمكن لذنب أن يجاورها، وفي الوقت نفسه فإنها توضح أن تفعيل هذه الرحمة في المجتمع البشري إنما يتم في إطار العدالة التي تقضي بمكافأة المحسن وبمعاقبة المسيء .

قد يقال وما الفائدة إذن من النص ؟

نقول حتى لا يتألى أحد على الله، وحتى لا يدعي أحد أن الله لا يغفر هذا، وأن هذا مصيره إلى النار وبئس الجحيم، فليقم الناس العدالة، ولكن لِيَدَعُوا الحكم فيها إلى الله تعالى يوم القيامة .



[١٩]
«يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً»(*)

في خمس أو ست آيات تعرض سورة الفرقان خلائق المؤمنين وتسردها سردًا أخاذاً يمسك النفس، أو قل إنها تسير معها لا تملك انفكاكاً؛ لأن الآيات كالموجات المتسابقة تسلم كل واحدة للأخرى، أو كل واحدة تبدو مستقلة قدر ما تبدو متصلة واقرأ إذا شئت : «وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا ❖ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ❖ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ❖ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ❖ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ❖ وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ❖ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً ❖ إِلاَّ مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ❖ وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا» .

فانظر كيف يمكن لهؤلاء الناس الذين يسيرون على الأرض هوناً. بلا بطر ولا تكبر، ولا استعلاء، ولكن بصورة طبيعية تلقائية. وهم مع هذا يبيتون لربهم سجدًا وقيامًا، وإذا أنفقوا لم يقتروا ولم يسرفوا، وكان بين ذلك قيامًا، ومع هذا كله فإن الآيات لم تستبعد أن يقعوا في كبائر الآثام، ولكنهم يتوبون إلى الله متابًا ويحسنون العمل، وفي هذه الحالة يحدث أمر عجيب .. تتبدل سيئاتهم حسناتهم، فيا لها من صفقة لا يمكن للتصور البشري أن يصل إليها، إن الله تعالى لم يمح سيئاتهم الشنيعة فحسب، ولكنه عندما تابوا وأصلحوا العمل حول هذه السيئات إلى حسنات، فمن يمكن أن يتصور هذا، أو يصل إليه بخياله، فضلاً عن عمله، ولكنه الله، وكفى .

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم» ، العدد (١٩١٤) ، بتاريخ ٢٠٠٩/٩/٩م .

[٢٠]
«وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ..»(*)

من النقط الهامة فهم الدين للطبيعة البشرية .. هل هي حسنة ؟ هل هي سيئة ؟ وهل يفترض أن تكون حسنة لا يقربها خطأ، أو أنها خاطئة لا يصلحها شيء .

اختلفت في هذه النظريات والأديان بحيث يغلب بعضها جانبًا على الآخر، فيرى البعض أنها حسنة، كما تصور روسو، ويرى البعض أنها شريرة كما تصور هوبز، وقد تنتهي بعضها إلى البراءة الأصلية، وتنتهي الأخرى إلى أن الخطيئة قد غرست في النفس .

إن الإسلام يتقبل الطبيعة البشرية كما جبلها الله تعالى وعبر عنها في أوجز وأفضل تعبير «وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ❖ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ❖ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ❖ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا» .

فالطبيعة البشرية ليست ملائكية، بل إن الفجور يسكنها كما تسكنها التقوى، وقد قدمت الآية الفجور على التقوى؛ لأن مشاركة الناس في الفجور أعظم من مشاركتهم في التقوى .

والحق أن هذا هو أحد أسباب بعثة الرسل ونزول الكتب التي عبرت عنها الآية «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ❖ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا» .

وهذا التصوير لوجود الفجور جنبًا إلى جنب التقوى في الطبيعة البشرية لابد وأن ينعكس على المجتمع الإسلامي الذي هو مجموعة من أفراد يخضعون جميعًا للطبيعة البشرية، ولابد بالضرورة من أن تتبدى انعكاسات هذا الضغط على المجتمع فتظهر فيه صور عديدة من مظاهر الفجور الإنساني؛ لأن المجتمع الإسلامي ليس مجتمع ملائكة، ولكنه مجتمع بشر يخضعون للطبيعة البشرية .

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم»، العدد (١٩١٥)، بتاريخ ٢٠٠٩/٩/١٠م .

وهناك أناس كثيرون أكثر تديناً وإســـلامًا من الدين والإسلام، فهؤلاء يرفضون أي إثارة من فجور في مجتمع إسلامي، ويؤثرون أن يكونوا كالنعامة، ولكن الإسلام يتقبل .. ولابد أن يتقبل مظاهر الفجور المنطبع في النفس البشرية جنبًا إلى جنب التقوى، بحيث يكون مجتمعًا بشريًا وليس مجتمعًا ملائكيًا .

وليس معنى هذا بالطبع الاستسلام لانعاكاسات الفجور، ولكن التعامل معها بما توصل إليه الإسلام من طرق للتعامل مع الفجور البشري، وهل يعود هذا الفجور إلى ضعف، أو أنه يعود إلى شر ؟ أما إذا كان يعود إلى ضعف فإن الإسلام يتعامل معه بطرق المقاصة على أساس الآية «إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ»، وأما إن كان عن شر فإن الإسلام يقابله بالحدود والعقوبات الرادعة، وأهم من هذه كلها أن الإسلام يفرض وجود دعاة يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويحيون في النفس اتجاهات الخير والإرادة، والسيطرة على الأهواء والشهوات بما تقنع النفس بأفضلية الهدى على الضلال، وهذه هي منظومة المجتمع البشري : الفجور بنوعيه من ضعف وشر يفرضان نفسهما عليه وفي مقابلهما توجد المقاصة مع الضعف والقانون الرادع مع الشر، يوجد الدعاة الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويعمقون الإيمـان في النفوس بحيث تقبـل طائعة على الخير وتتجنب من تلقاء نفسـها دوافع ونوازع الآثام «وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ»، وتكون الحياة في هذا المجتمع مبارزة ما بين الخير والشر، يوكل الحكم الأخير فيها إلى الله يوم القيامة .



[٢١]

«إِذا جاءَكَ الْمُنَافِقُونَ ..»(*)

إنها سورة مختصرة، ولكنها تشير إلى البلاء الأعظم الذي تجذر في المجتمع الإسلامي، لقد ظهر في أيام الرسول، وتحدثت عنه السورة، وكيف إنهم اتخذوا أيمانهم جنة يتسترون وراءها ويدفعون بها وهم يقترفون أعظم الآثام، والمصيبة الكبرى أنهم ادعوا الإيمان، فلم يكونوا من الكافرين الذين يعلم المسلمون بكفرهم ليتجنبوهم، ولكنهم اتخذوا أيمانهم وسيلة للدخول في صفوف المسلمين وبث فتنتهم وكيدهم، وقد وصل خطرهم أن أعلن الله رسوله «سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ» .

وعرض القرآن لبعض وشاياتهم وكيدهم وتحريضهم بقوله «هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَفْقَهُونَ» .

لنتصور قومًا يستغفر لهم الرسول، ولا يقبل الله هذا الاستغفار؛ لأنه يعلم ما لا يعلمه الرسول من خبثهم وخستهم، فهم يحرضون الأنصار على أن لا ينفقوا على المهاجرين حتى ينفضوا وهم الذين يظنون أنهم إذا عادوا إلى المدينة من إحدى الغزوات «لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ» يريدون بذلك أنهم سوف يخرجون المهاجرين من المدينة، غير دارين أن ابن زعيمهم هو من خيرة المؤمنين، ولما سمع الابن ذلك أمسك بسيفه وعندما عاد أبوه وأراد أن يدخل منعه ابنه، وقال حتى يأذن لك رسول الله ليعلم من هو الأعز .

على كل حال فإن شر المنافقين لم يستعر إلا في فترات التدهور الإسلامي الذي كانوا هم أنفسهم من أكبر أسبابه، لأنهم كانوا كالسوس ينخر في قوائم المجتمع ليتزلزل أو ينهار .

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم» ، العدد (١٩١٦) ، بتاريخ ٢٠٠٩/٩/١١م .

والنفاق اليوم هو أكبر عامل مؤثر في المجتمع المصري، وهو أكبر أسباب تخبطه وتدهوره ، وقد بدأ في البيت، فالأم التي تدلل ابنها وتحول بينه وبين أن يتحرك أو يلعبَ أو يعمل خوفاً عليه، والتي تحقق كل مطالبه بمجرد أن يبدأ الصراخ هذا الطفل ينمو فاقدًا لملكة الاعتماد على النفس أو مجابهة الواقع أو التصرف وتحمل المسئولية، ويتصور أن كلمته يجب أن تطاع، فإذا دخل المدرسة لم تزده المدرسة إلا خبالاً ونقلته من التدليل إلى التلقين والحفظ وحشو ذهنه بمعلومات لا فائدة منها، ولم تقدم إليه ما يتطلبه المجتمع من مهارات، وعندما جوبه بعد تخرجه بحثاً عن عمل بالحياة الصلبة الصعبة، وأن لا أحد يأبه له، ولما كان عاجزًا عن القيام بالعمل وتحمل المسئولية وأن يخوض معركة الحياة، لما حصل ذلك اهتدى إلى أن النفاق يمكن أن يفتح أمامه الطريق المغلق، فأخذ ينافق رؤساءه حتى رفعوه، وفهم الجميع أن الوسيلة الوحيدة لفتح الأبواب أمام الخائبين هي النفاق، فأخذ كل واحد فيه حتى أصبح النفاق هو وسيلة الوصول.

فإذا كان هذا هو النفاق الفردي، فإن النفاق يأخذ شكلاً اجتماعيًا يمثله التدين الكاذب كإطلاق اللحية وترديد «صلى الله عليه وسلم»، «رضي الله عنه» وسيدنا فلان (من الصحابة)، وتلاوة الأوراد، كل هذا ليهرب من الحديث في صميم الموضوع، وانتقل هذا إلى المجتمع فالمشاكل تقوم ويلمسها كل واحد، ولكن الجميع يتجاهلها ويتجنبها ولا أحد يريد إصلاحها، وكلهم يعرف أن ما يقوله أو يفعله هو نفاق في نفاق وهو هروب من حل المشاكل واللواذ بقضايا أخرى.

إن النفاق الاجتماعي أصبح أكبر قوة تحكم المجتمع المصري.



[٢٢]
«وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً»(*)

كانت الهيمنة على العالم أجمع أمل أكبر الفاتحين في التاريخ وتمناها الإسكندر، وحاولها جنكيزخان وتيمورلنك، وتصورت الإمبراطورية الرومانية أنها أصبحت تحكم العالم، بل إن الإمبراطورية الإسلامية في عهد المأمون وهارون الرشيد كادت تحكم العالم.

ولم تتحقق أمنية فتح العالم لأي واحد من هؤلاء جميعًا، فقد ظهر أن العالم أكبر وأعسر من أن يجمعه جنرال عسكري أو إمبراطورية مهما كان قدرها.

على أن حكم العالم لا يعني أن يكون العالم أمة واحدة، فقد يسهل على حاكم قوي الذكاء في وقت مواتي أن يحكم العديد من بلاد العالم، ولكنه لا يستطيع أن يجعل منها كلها أمة واحدة.

بل إن العصر الحديث بكل قواه وإنجازاته لا يستطيع أن يحقق «العولمة» حتى وإن حطم الأبواب التي كانت تحمي الدول من عدوان الآخر، لقد تحطمت هذه الأبواب وأصبح يمكن للبيتزا .. والسيارة .. والتليفون أن تُوحِّد أكثر من أي عهد مضى رمزاً من التلاق، أما الوحدة الكاملة فلا يتأتى ذلك لصعوبات اللسان والألوان، والحضارات والتاريخ .. إلخ.

ويوضح لنا التاريخ أن فكرة الهيمنة على العالم أو محاولة جعله أمة واحدة كانت هي أكبر أسباب تسلل الضعف إلى الدول التي حاولت ذلك، والتي نجحت جزئيًا، ولكنها عجزت عن القيام بمسئوليات رعايا الدول التي احتضنتها والتي أصبحت عبئاً عليها، وإن تصورت أنها ستكسب منها، لأن الهدف غير طبيعي.

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم»، العدد (١٩١٧)، بتاريخ ٢٠٠٩/٩/١٢م.

وتجربة الولايات المتحدة الدولة الأعظم التي ضمت أعتى قوة عسكرية، وأعظم اقتصاد عالمي شاهد على ذلك.

هذه الدولة العظيمة هزمت في فيتنام هزيمة مدوية، وعجزت حتى الآن في الأفغان، مع أنها استعانت بكل دول أوروبا، ومع أنها نسفت الجبال نسفاً، فلم يفدها شيئاً ولا تزال «طالبان» وحسبك اسمها تقف كالشوكة في الزور، ومع أنها رزقت نصرًا سهلاً في العراق التي كان يحكمها أسوأ حكام العالم وكان يمكن أن تدخل دخول المحرر فيقابلها الشعب بالورود، فإن فكرة الهيمنة والسيطرة والضم جعل الشعب العراقي يواجهها وأصبح العراق مستنقعًا يريد الأمريكيون أن يخلصوا منه.

وهكذا كانت نهاية أكبر محاولة في الحقبة المعاصرة لتفرض دولة سيطرتها على العالم.

وقد حسم الله تعالى ذلك عندما قال: «لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا».

وقد أوضحت الآية أن الله تعالى إنما خلق العالم على ما هو عليه من أمم وشعوب «لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ»، أي إن كل من هذه الدول والشعوب ستقوم بدورها في الحياة، وإن هذا لن يدع الذين يريدون الضم والهيمنة والسيطرة حرية العمل أو إطلاق اليد، وجاءت الآية محرضة الجميع لأن يستبقوا الخيرات، فيكون هناك سباق وهناك تعددية، ولكن لن يكون هناك هيمنة وسلطة مطلقة، فهذا إذا حدث فإنه يستحيل أن يظل أبد الآبدين «وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ».



[٢٣]

«لَوْ أنفقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ..»(*)

أكبر ما يتمناه قائد، أو حاكم، أن تتألفه القلوب، وأن يكون أتباعه من الذين جمعت بينهم الألفة، وهذا ما لا يمكن أن يصل إليه حاكم حتى لو أنفق مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا، فالقلوب لا تشترى، كما أنها لا تحكم، وليس في يد أعظم الحكام إلا هذين المال ليتألف الناس، والقوة والبطش ليخضعهم، وكما قلنا فهذان لا ينفعان مع القلوب.

وإنما تكسب القلوب بالفكرة الرائعة التي تكتسب من أصالتها ومن حقيتها ومن إبداعها ما يجذب القلوب فتنجذب، لأن الفكر هو لغة القلب، وقد تصل عزة القلوب درجة يكون الله تعالى وحده هو الذي يمكن أن يحقق تألفها كما في الآية «فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ❖ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ»، والله تعالى قام بهذه المهمة الصعبة عبر وسيلتين هما القرآن والرسول، القرآن الذي لو ألقى على جبل لجعله خاشعًا متصدعًا، فما بالك عندما ينزل على القلوب وهي لحمة التأثر .. ثم جاء الرسول رحمة مهداة، ومثلاً أعلا يمشي على الأرض.

وقد ظهر أثر الهيمنة الكاملة للإسلام على نفوس وقلوب المؤمنين عندما التجأ المهاجرون من أهل مكة الهاربون من بطش مشركيها، تاركين ثرواتهم وأملاكهم إلى المدينة التي «فتحت بالقرآن» كما قالت عائشة، فقابلهم الأنصار (أهل المدينة) مقابلة الأخوة الأعزة، وأشركوهم في مالهم ومنازلهم ووصل عمق المحبة أن عرض أنصاري لمهاجر أن يشركه في ماله وأن ينزل له عن إحدى زوجتيه، فقال المهاجر بارك الله لك في مالك وأهلك، دلني على السوق.

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم»، العدد (١٩١٨)، بتاريخ ٢٠٠٩/٩/١٣م.

هل يمكن لأي حاكم أن يصل تأثيره مثل هذا التأثير .. مستحيل، لذلك قال الله «لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ»، وهذا الأمل الطموح مع هذا يمكن تحقيقه لو جعل الحاكم القرآن دستوره، ولو تأسى بالرسول ﷺ في سياسته وتقشفه وسموه عن متاع الدنيا، يمكن للحاكم أن يملك القلوب كما ملكها أبو بكر، وكما ملكها عمر، لو احتذى بهما، وعندئذ يظفر بأعظم ما يصبو إليه حاكم : حب الناس وألفة الشعب.

أفليس هذا هو الطريق المستقيم لكسب الجماهيرية ؟ أليس هو أجدى من كل وسائل الدعاية ، ومن اصطناع الأتباع، وإعطاء النواب منحًا ومزايا، وحصانة يمكن في ظلها ممارسة كل صور الفساد، أليس هذا أفضل من تكوين جيش جرار باسم الأمن المركزي يضم الألوف المؤلفة من الجنود والضباط والمئات من العربات الحديدية المغلقة - سجون على عجل - والهراوات التي يصعق بعضها .. يا سيدي الحاكم لست في حاجة لهؤلاء الذين كان يمكن أن يزرعوا ويصنعوا ويتاجروا .. كلمة حب يصدقها عمل .. أما كلمة حب يناقضها عمل، فالشعب يعلم أنها رشوة رخيصة .. واستغفال وتخدير.



[٢٤]
«حَرْثُ الدُّنيَا ..»[*]

من أهم القضايا التي يكون على الأديان أن تعالجها موقف الدين من الحياة الدنيا ، فبعض الأديان يضيق بها ويتمنى لو خلص الإنسان منها بطريقة أو بأخرى، وبالطبع لن نجد في الأديان من يحض على الدنيا ويأمر بالإقبال عليها والانتهال مما تقدمه مما تحبه النفس الإنسانية من استمتاع ولذة ، وقد وقف الإسلام موقفاً وسطاً ، فصرح في أكثر من آية :

- «مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا ❖ وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ❖ كُلاً نُمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا» (١٨ ، ١٩ ، ٢٠ الإسراء) .

- «مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ» الشورى : ٢٠) .

يلفت النظر أن القرآن وجه الحديث إلى «مَنْ كَانَ يُرِيدُ»، أي إلى الإرادة الإنسانية، وأنه لم يضق بالذين يريدون حرث الدنيا أو العاجلة، وأن عطاء الله ينالهم لأنه ليس محظورًا، وإن كان قد حرمهم من ثواب الآخرة .

وإذا عرفنا أن العبادة هي كل ما يرضي الله تعالى من الأفعال، بما فيها كل ما تحفل به الحياة الدنيا من أعمال يراد بها الخير، وخدمة الناس، وتيسير التكاليف، أو حتى الاستمتاع بما في هذه الحياة من جمال وما تثيره من لذة فيمكن أن نتوصل إلى أن الفجوة ما بين الحياة الدنيا والحياة الآخرة .. حرث الدنيا وحرث

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم» ، العدد (١٩١٩) ، بتاريخ ٢٠٠٩/٩/١٤م .

الآخرة، ليست بالدرجة المتصورة، وأن هناك ما يمكن أن يملأها من العمل الصالح الذي يشترك في أنه من عمل الدنيا وعمل الآخرة .

رغم هذا.. فإن الفكر المؤصل في النفوس، وما جرت به الأفهام من قديم أوجد فجوة كبيرة بين حرث الدنيا وحرث الآخرة فهو يضخم من العبادات، بمعنى الشعائر والطقوس من صلاة وصيام وقراءة قرآن وتلاوة أوراد ، لا يقتصر على المفروض منها ، وإنما هناك نوافل وتطوع تفـــوق المفروض أضعافاً بحيث لا تترك وقتاً للحياة الدنيا ، والمفروض إما أن تتجلى العبادة في كل عمل دنيوي من زراعة أو تجارة أو استثمار أو صناعة ، أو خدمات ومرافق أو ثقافة أو معرفة أو بحوث علمية تكشف عن أسرار الكون وتجعلنا نستخدم موارده، وأن يكون هناك مكان للفنون والآداب والاستمتاع بمشاهد الجمال وما توحي به موسيقى عذبة أو صوت رخيم وتعد هذه كلها قربات وصور من العبادة ، وإما أن نعتبرها هي الحياة الدنيا ويكون على الدين أن يخلي لها الوقت الأعظم والمجال الأكبر، لأن الدنيا هي الدنيا وما دمنا نعيش فيها فلابد أن نعطيها حقها .

أذكر إني سمعت «نكتة» يلمز بها الغربيون المسلمين يقولون : إن المسلمين لا يفكرون إلا في مستقبلهم بعد الموت ! أما مستقبلهم في الحياة الدنيا فلا يعنيهم، وعندما ذكرتها لبعض المثقفين لم يرفضوها ، وقالوا إن الحياة الدنيا لعب ولهــــــو، وأن الآخرة هي الباقية ، وأنا أقول إن هذا ليس هو فهم القرآن ولا الرسول، ولكنه الفهم الذي أدى بالمسلمين إلى التدهور وأن يخسروا الدنيا والآخرة .



[٢٥]

«هذا حلال .. وهذا حرام»(*)

كان تحريم وتحليل الإسلام من العمق بحيث أن كلمتي الحلال والحرام كونتا الضمير الإسلامي ووصلتا إلى أعماق النفس الإسلامية وجعلتاه الفيصل في الأحكام، وقد يوضح ذلك أغنية شعبية تقول :

تُحرم عليَّ إيدي إن لمست إيديك   تُحرم عليَّ عيني لو طلت عليك

ولكن الآية تنقلب :

لما تكون حلالي أحطك في عيني واتكحل عليك

إلى هذا العمق وصلت كلمتا حلال .. وحرام .

والحقيقة أن هذا التقديس إنما حدث لأن الإسلام خص كلمة حلال وحرام بالشارع نفسه، أي الله، وقال القرآن «وَلا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ» (النحل : ١١٦) .

وأصبح الحلال الذي ينص عليه الشارع حلالاً لا يحرمه أحد، كما أصبح الحرام الذي يحرمه الشارع حرامًا لا يحلله أحد .

ولكن السلطة الدينية، وأهل الذكر، يريدون أن يشركوا أنفسهم في القضية، والناس يستفتونهم وهم يرددون هذا حلال .. وهذا حرام .

لقد نشرنا بجريدة «القاهرة» يوم ٢٠٠١/٩/٢٦م، مقالاً بعنوان «ليس للفقهاء أن يقولوا هذا حرام .. وهذا حلال»؛ لأن التحريم والتحليل بنص القرآن هو لله وحده .

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم»، العدد (١٩٢٠)، بتاريخ ٢٠٠٩/٩/١٥م .

والمفروض أن لا يقولوا هذا حرام وهذا حلال إلا إذا جاء في ذلك نص قرآني صريح لا تأويل فيه، أما فيما لم ينص فلا يجوز لهم استخدام هذا التعبير حلال وحرام، وكان الإمام أحمد وكبار التابعين يتحرجون من الحكم بحرام وحلال، ويتجنبونه ويلوذون بتعبيرات أخرى.

ما أكثر ما نسمع هذا حرام .. هذا حرام كل يوم من مائة قناة تليفزيونية يقتعد مجلسها ويمسك ميكروفانتها شيوخ لهم لحى طويلة مسترسلة يحرمون ما أحل الله أو ما سكت عنـــه ولا يستشعرون حرجًا أو حساسية والناس تأتم به، ويقولون حسبك بلحيته شاهدًا ودليلاً.

كان الأدب الذي أدب الرسول صحابته أن لا يسألوا وأن يعملوا بما علموا، أما ما لم يعلموه فيكلوه إلى خالقه، وأن يعتمدوا على قلوبهم التي تدلهم على الإثم عندما يحوك في صدورهم ويعرفون الإيمان بما يستشعرونه من رضا وقبول «إن الإنسان على نفسه بصيرة»، وقال «لا تسألوني وإذا نهيتكم عن أمر فانتهوا وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم»، وقال «إن أكثر الناس عذابًا يوم القيامة رجل سأل عن شيء فحرم لأجل مسألته».

كان الصحابة يتصرفون فيما لم يرد فيه نص بما ترضاه قلوبهم وما تقبله عقولهم ولم يستشعروا بعد ذلك حاجة إلى أن يسألوا، رغم أن الرسول العظيم كان حيًا بينهم لأنهم يعلمون أنه كان يكره قيل وقال، وكثرة السؤال.

وما نهى عنه الرسول من كثرة السؤال هو التجارة التي ازدهرت أيما ازدهار بفضل الفضائيات واللحى الطويلة.



[٢٦]

«مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ»(*)

هذه هي الجملة التي حفظها المسلمون جميعًا ـ في أربعة أركان الأرض عن ظهر قلب، وفهموا أنها رخصة لكي يتزوجوا حتى أربع زوجات، وفسرت فحولة البعض أن المقصود بمَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ بتسع زوجات، وهو مجموع الأعداد اثنين وثلاثة وأربعة.

ولم يفكر أحد فيم جاء هذا النص الخطير، ولا ما سبقه من كلمات وما أعقبه من حديث، والمفروض أن لا تنتزع جملة قرآنية عما قبلها وما بعدها؛ لأن القرآن يتلاعب ـ في التقديم والتأخير بما يحقق ما يقتضيه النظم الموسيقي وشدة تأثيره ـ في النفس البشرية بحيث يحقق لها الهداية دون أي اعتبارات أخرى.

هذه الكلمات مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ، جاءت ـ في الآية الثالثة من سورة النساء، وسورة النساء إنما أنزلها الله تعالى ليدافع بها عن المرأة، وليستبعد كل صور انتهاكات حرياتها وانتقاص حقوقها، وهي كلها رحمة وعدل وإنسانية.

الآية الأولى ـ في السورة «يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا».

والآية الثانية «وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوباً كَبِيرًا».

ثم تأتي الآية الثالثة «وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلاَّ تَعُولُوا».

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم»، العدد (١٩٢١)، بتاريخ ٢٠٠٩/٩/١٦م.

من هذا نرى أن جملة «مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ» جاءت مبنية على شرط معين هو «وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى» فإذا لم يتوفر الشرط فلا إذن في النكاح مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ ثم لم تقف الآية عند هذا، إنها أعقبت ذلك بشرط «فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً» وليس على إذا لم تعدلوا بالفعل.

إن الأمة الإسلامية فسرت الآية في ظل ظروف كانت تبيح التعدد إلى عشر زوجات دون أي قيد أو شرط، فرأت أن الهبوط بالعدد إلى أربعة هو تقليل لتعدد الزوجات والنزول به إلى أدنى حد، أما قضية «عدم القسط فِي الْيَتَامَى» فلم يعلقوا عليها أهمية أو أنهم تجاهلوها كأن لم تكن، وأما «خوف عدم العدل» فقد فسروه بأنه العدل في الطعام والشراب والثياب، وكأن المرأة حيوان لا يؤثر عليها إلا العدل في الطعام والشراب والثياب، أما العاطفة فلا تعنيها.

الآية بنصها الكامل لا يمكن أن تكون رخصة حرة في الزواج مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ لأنها مسبوقة بظرف معين ومحكومة بشرط معين، ولكن ذلك لم يكن لتحتمله الأمة العربية عند نزول القرآن، فأولت الآية بما يمكن لهذا المجتمع أن يتحمله.

وقد آن الآوان لأن نعيد للآية كرامتها وأن نحترم نصوصها لأننا في ظل ظروف تسمح بذلك بحيث يكون الأصل هو الزواج بواحدة، ولا يكون الزواج بأخرى إلا في حالات معينة وبعد تسوية الأمر مع الزوجة الأولى بما يرضيها.



[٢٧]
«ثلاثُ عوْرَاتٍ..»(*)

لا يستخدم القرآن الكريم كلمة عورة إلا لما يستقبح أو يكون مكشوفاً.

في الآية ٥٨ من سورة النور، وضح لنا القرآن الأوقات التي لا يجوز لأحد أن يزور فيها آخر فقال: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنْ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلاةِ الْعِشَاءِ ثَلاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ».

يحدد لنا القرآن الكريم ثلاث أوقات يفترض أن لا يأتي زائر فيها، هي: أولاً من قبل صلاة الفجر، وثانيًا حين يضعون أي يخلعون ثيابهم من الظهيرة، وثالثاً بعد صلاة العشاء.

وبرر القرآن ذلك بأن هذه الأوقات «عورات» بمعنى أنها الوقت الذي يقوم الإنسان من نومه ويغلب أن يخلع ملابسه ليبدأ في الاغتسال لإزالة آثار النـــوم، وفي الوقت الثاني حين يلوذ الإنسان بالقيلولة ظهرًا عندما يعود من عمله ويخلع ملابسه ويتخفف منها إيذاناً بالنوم، وهذه القيلولة أمر طبيعي في البلاد الحارة إذ لا يمكن مواصلة العمل دون أخذ هذه الراحة، وأخيرًا وبعد صلاة العشاء عندما ينتهي اليوم ويستعد الإنسان للنوم ويخلع ملابسه.

وعادة ما تقرن هذه الفترات التي تأتي بعد نوم وتستتبع خلع ملابس، بوجبة طعام قد تكون الإفطار وقد تكون الغداء وقد تكون العشاء مما يوجد ظرفاً مضاعفاً يحول دون استقبال زائر.

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم»، العدد (١٩٢٢)، بتاريخ ٢٠٠٩/٩/١٧م.

يفترض في كل واحد يتأدب بآداب الإسلام أن يتجنب الزيارة في هذه الأوقات حتى لا يحرج صاحبه، وخاصة وقد جاء في الآية ٢٧ من السورة نفسها «وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا»، وهذا عقاب لمن يأتي دون ميعاد، وإذا كان استقباله يحرج صاحبه أو تقلب ترتيباته، فإن من حقه أن يقول له ارجع، ومن واجب هذا الزائر أن يتقبل هذا قبولاً حسناً لأنه نتيجة طبيعية للقدوم دون سابق إذن ودون معرفة بظروف صاحبه.

كنت في زيارة للخرطوم، وفي فترة الظهيرة وبعد أن بدأت نوم القيلولة إذا بالباب يطرق ويخرج مضيفي ليقابل زائره معانقاً مرحبًا، وبعد أن انصرف قلت له كان من حقك أن تقول لهذا الزائر ارجع، فقال لو قلت له ذلك لرآني قاطعًا للرحم، مخالفاً للذوق والأدب، رافضًا للود، مرتكبًا لإهانة، ولفضحني.

وأنا شخصيًا لا أكاد آوي إلى سريري بعد عمل مرهق، وأبدأ القيلولة حتى يدق جرس التليفون فالصحفيون والصحفيات يأتون مكتبهم في الظهر تقريبًا، وما أن يجلسوا حتى يبدأوا مكالمتهم التليفونية لإجراء تحقيق صحفيًا مع عباد الله الغلابة.

إنه لمن العار أننا لا نلم بآداب الإتيكيت واللياقة، فهي في الغرب أصبحت عرفاً متبعًا دون أن يكونوا في حاجة لتعليمها، أما نحن فعلينا أن نتعلمها، وقد علمناها القرآن.



[٢٨]
«إذا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ»(*)

علمنا القرآن آداب التحية، وقد يسأل سائل وهل كان على القرآن أن يعلمنا هذا أيضًا .

يبدو أنه كان ضروريًا، ولهذا نزلت الآية «وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا» (النساء : ٨٦) .

ومع هذا فيبدوا أننا لم نتعلم ما علمنا فنحن حتى الآن لا نأخذ بما أوجبه القرآن .

بيَّن القرآن أنه إذا بدأنا أحد بتحية، فعلى الآخر أن يرد بمثلها أو بأحسن منها .

وليست التحية هي السلام وحده، وإنما هي كل شيء فيه تحية .

فالهدية مثلاً هي نوع من التحية ويفترض فيمن يتقبل هدية أن يرد بمثلها، فإذا لم يكن لديه فلا أقل من أن يشكر عليها .

وإذا أرسل أحد خطابًا يحييك فيه أو يهنئك بمناسبة أو حتى يسأل عن مسألة فإن من رد التحية أن ترد عليه، حتى وإن كان صغيرًا وأنت كبيرًا، فمادام قد حيا فقد وجب الرد ، ومن أسوأ العادات أن يكتب أحد إلى أخيه مهنئاً أو مسلمًا، فلا يلقى ردًا، فهذا نوع من احتقار المرسل، وعدم إعطائه حقه .

في مقابل هذا نجد سرفاً في التحية أصبح مقبوحًا فما أن يلتقي أحد بصاحبه حتى يعانقه ويقبله .

لا أدري من أين تسللت إلينا هذه العادة المقبوحة، وقد كانت مجهولة في الأربعينات، ولا أدري سببًا لشيوعها إلا أنها صـورة من صور التسيب الشائع .

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم» ، العدد (١٩٢٣) ، بتاريخ ٢٠٠٩/٩/١٨م .

وقد بينت السُنة، التي تفصل ما أجمله القرآن، إن التحية عند اللقاء هي المصافحة فحسب دون المعانقة أو التقبيل، وأن هذا الأخير إنما يحدث عند العودة من السفر فحسب، أما في حالات التلاقي العادية فهي مكروهة، روي أن رجـلاً قال للرسول يا رسول الله الرجل منا يلقى أخاه أو صديقه أينحني له، قال : لا، قال أفلا يلتزمه ويقبله، قال : لا، قال فيأخذ بيده ويصافحه، قال : نعم .

ولم يحدث أبدًا أن كان الصحابة يتعانقون كلما يتلاقون .

إن انتشار هذه العادة الغريبة، وصل من القوة أن فرض نفسه على الأجانب عندما يقابلون عربيًا فيبادلونه العناق والتقبيل مع أن هذا التقبيل في العرف والمزاج الأوروبي أمر مقزز، فلا تقبيل إلا للنساء .

وآن لنا أن نتخلص من هذه العادة التي لا تمثل إلا نوعًا من النفاق والسرف .

إن الآية تلزمنا الأدب دون أن يتردى إلى ما يخالفه، حتى الوقوف - وهو مما يدخل في الأدب - ولكن يمكن أن يتطرق إليه مظنة الخضوع وقد أمر الرسول أصحابه أن لا يقوموا له وكره من أحب أن يتمثل له الرجال وقوفاً .

الذوق والأدب والإسلام هو المصافحة، أما المعانقة فلا .



[٢٩]
«كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ»(*)

تتصدى الآيات (٢-٣) من سورة الصف «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ» لظاهرة شائعة شديدة الانتشار بقدر ما هي سيئة الآثار، وهي تعرض للقول تجاه العمل، فما أكثر الذين يقولون .. وما أقل الذين يعملون، وهذا لأن الكلام سهل، والعمل صعب، وتأخذ هذه العملية أسوأ صورها عندما يتعارض العمل مع الكلام، فالمتحدث يقدم وعودًا ولعله يؤكدها بالأيمان المغلظة ثم لا يؤدي منها شيئاً، فهذا التناقض ما بين الكلام والعمل أمر يخل بالنظام ويقضي على الثقة التي عليها تقوم المعاملات والعلاقات، ويتم هذا بسهولة، وكأن صاحبها لم يقترف أمرًا إدًا .

لهذا جاءت الآية قارعة «كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ»، ويوحي التعبير القرآني بأن القول يتضمن وعدًا بفعل، وأن هذا الفعل لا يؤدى ، فهل هناك ما هو أكثر من هذا التعبير الصارم «كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ» ولو أن المسلمين يقرأون القرآن ولو أنهم عند قراءتهم يفكرون فيما يقرءون، ولا يكرون الآيات كرًا، لتبينوا الجريمة التي يقترفونها كل يوم، وهم لا يعلمون أو هم يحسبونها هينة وهي عند الله عظيمة .

إن مجتمعًا يدأب أفراده على أن يقولوا ما لا يفعلون، لابد وأن يكون مجتمعًا مفككاً مضطربًا، لا يستقيم، ولا يستقر، وكيف يستقيم أو يستقر والوعود في واد والأعمال في واد آخر، أو أن الكلمات تقدم وعودًا ولكن لا وفاء بها ولا تطبيق لها .

عندما تحدث الرسول عن أمارات المنـــافق قال «إذا وعد أخلف»، وهذا هو ما تندد به الآية، وما تراه كبيرة الكبائر .

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم» ، العدد (١٩٢٤) ، بتاريخ ٢٠٠٩/٩/١٩م .

المجتمع السليم يقوم على الصدق، وعلى الثقة، وعلى الأمانة، فإذا اختل هذا فلا يمكن أن يقوم مجتمع لأن هذه الظاهرة تهز المجتمع من أساسه ، ولأنها ليست مقصورة على كلام من واحد لآخر، ولكنها تشمل كل «تصريحات» المسئولين في المجالات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، هي ما بين البائع والشاري، هي ما بين الصانع والعميل، فإذا كان كل هذا كلام لا يتبعه عمل، ووعود لا تتحقق، فكيف يستقر المجتمع .

إن عدم الوفاء بالعهود هو أسوأ صورة للكذب لأنه يتعلق بالتزام لا يؤدى فهو كذب مضاعف يؤدي إلى خلل في المجتمع .

يقول المثل الشعبي «أسمع كلامك أصدقك .. أشوف أمورك أستعجب»، فهل قضي على المجتمع أن يقضي حياته ما بين الصدق الساذج، وما بين الخُلف الشنيع .

وإلى متى ؟؟!!



[٣٠]

«رمضان .. بين الواقع .. والواجب»[*]

يتصور الناس أن شهر رمضان هو شهر الصيام ..

ولكن الله تعالى يقول : «شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ»، ويبني على هذا «فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ» .

«شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنْ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ» (البقرة :١٨٥) .

أي إن القرآن الكريم أراد أن يكون صوم رمضان نوعًا من الاحتفال بالقرآن الذي أنزل فيه .

فإذا تصورنا رمضان كما أراده القرآن لقلنا : شهر رمضان هو شهر القرآن .

هو المناسبة التي نظهر فيها احتفالنا وتقديرنا وفهمنا وتطبيقنا للقرآن .

والقرآن فيه «تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ»، ومن ثم فإن الاحتفال به يمكن أن يضم كل شيء حتى الفنون والموسيقى، والمسلسلات والغناء .. إلخ، ولكنها ليست إلا جزءًا يسيرًا من عالم القرآن العظيم.

القرآن فيه «تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ»، لأنه أحال على العقل، وأمر بالفكر، واعتمد الحكمة ، وهتف بالمؤمنين أن يسيروا في الأرض، وأن يتدبروا آيات الله في الآفاق وفي أنفسهم .

أتصور أن يكون رمضان شهرًا تتبارى فيه كل الهيئات والجامعات، والوزارات، والهيئات الأهلية بعرض ما تقوم به وتعريف الناس بما توصلت إليه من إنجازات، ويظهر فيه الأبطال المجهولون في كل ناحية، ويظهر فيه كل فلاح استطاع أن يضاعف

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم» ، العدد (١٩٢٥) ، بتاريخ ٢٠٠٩/٩/٢٠م .

المحصول، وكل رياضي ضرب رقمًا قياسيًا، وكل عامل توصل إلى اختراع أو اكتشاف ينهض بالإنتاج .

كل الهيئات تنهمك ليلاً ونهارًا في إعداد معارض، اجتماعات، مؤتمرات، دراسات وكل واحدة تضم برنامجًا يوميًا أو أسبوعيًا .

بهذه الصورة يكون رمضان عيدًا للعمل .. لإبراز الجهود .. لمراجعة سير التقدم لمعرفة أوجه النقص لاستدراكها والتعرف على الإنجازات والإشادة بها .

العمل هو دليل الإيمان، لأن كل واحد يمكن أن يدعي أنه أتقى الناس .. وأنقى الناس فإذا كان عمله زورًا وزيفاً وتلفيقاً، فإن هذا هو ما ينفي إيمانه .

القرآن يقدم الجانب الإيجابي في شهر رمضان؛ لأن الصيام عن الأكل والشرب والمخالطة الجنسية عمل سلبي، وهو محدود القيمة، خاصة وأنه من الفجر للغروب يباح بعدها ما حرم قبلها، فليس له في حد ذاته قيمة كبيرة، القيمة الكبيرة هي أن يشغل يوم الصيام بما يملؤه من عمل منتج، عمل مستمر، عمل مفيد، وهذا العمل هو ما سيشغله عما يثيره الصيام من ضيق أو ملل .

هذا هو الواجب في رمضان كما يوحي به القرآن .

أما الواقع فهو بالطبع شيء آخر شيء «مختلف»، شيء يتناقض مع الواجب .

كنت في جدة أحد أيام رمضان فكدت أجن، المدينة كلها نائمة، لا وجود لها من الصباح حتى العصر، والفيلا التي أستضفت فيها ليس بها أحد كأنها مهجورة، وبعد العصر فحسب بدأت المدينة تتثاءب وتظهر فيها حركة طفيفة .

والحال في بقية المدن في العالم الإسلامي قريبة، الوزارات مفتوحة، ولكن الموظفين نائمون، مقياس العمل في كل شيء ينزل إلى أقل مستوياته بحجة الصيام، فإذا أذن المغرب فالكل منهمك في الأكل فلا تسمع إلا قضمًا وبعده يأتي الشاي والشيشة، وبعده ينفتح التليفزيون .

إن الهيئة الوحيدة التي قامت بما افترضنا أن تقوم به بقية الهيئات من مضاعفة الجهود وإبراز الإنجازات هي التليفزيون التي تحشـــد عشرات أو حتى مئات القنوات ببرامج مختلفة من روايات ومسرحيات وأفلام ومسلاسلات وأغاني .. إلخ .

ومن ناحية أخرى نجد مجموعات تهرع في رمضان إلى صلاة التراويح التي تطول أو تقصر، وتعمل للاعتكاف في العشر الأواخر .

لا العكوف على التراويح ولا الاستسلام للتليفزيون هو التعامل الأمثل مع رمضان .

لأن الوقت الذي نعيش فيه هو وقت سباق، وقت جري، وقت طيران، منافسة عنيفة للتوصل إلى آخر ما أثمرته البحوث في الفلك، والرياضة، والصناعة، والإنتاج، في صنع معدات القوة العسكرية من طائرات إلى غواصات إلى حاملات طائرات .

تخلفنا .. تخلفنا .. تخلفنا !!! وأبرز عنصر في هذا التخلف في الوقت، فاليوم الذي يضيع لا يمكن استعادته أبدًا، يجب أن نعمل ليل نهار .. لا لنكون أندادًا للغرب المتقدم، ولكن لكي نحصل على هزيمة مشرفة، هزيمة تجعل تخلفنا مائة سنة بدلاً من أن يكون مائتين .

* * *

وقد سأل سائل ..

لماذا هذا التخلف ؟؟؟

لأسباب عديدة .. منها ـ فيما نحو بصدده ـ إن الإيمان السلفي للإسلام الذي تدعو إليه المؤسسات الدينية .. إيمان تقليدي .. يقوم على الاجترار، ويعيش في الماضي ويتقبل الخرافة ولا يسهم في الحاضر، ومن الطبيعي أن يخلو من الإبداع ويستحلي الخرافة .

إن هذا الفهم السلفي يؤمن أن الأسلاف أقدر منا، وأننا لن نصل إلى شأوهم، وعلينا تقليدهم، أي إن أمة محمد أعطت عقلها إجازة لألف عام عندما أغلق باب الاجتهاد وصدأ العقل المسلم لعدم الاستخدام لألف عام.

فلنشكر الله أننا لا نزال نسير على قدمين، وكان يمكن أن نسير على أربع لأن الله يقول: «أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمْ الْغَافِلُونَ» (الأعراف: ١٧٩).

والحل : العودة إلى القرآن .



المجموعة الثانية

إلهامات قرآنيـة

نشرت بجريدة «المصري اليوم»

رمضان سنة ١٤٣١هـ

أغسطس/سبتمبر سنة ٢٠١٠م

[١]
«وَأَنْ أَتلُوَ الْقُرْآنَ»(*)

يقول لي كثير من الناس : كيف نفهم القرآن دون أن نرجع إلى التفاسير ؟ فأقول لهم :

أولاً : إنكم تفهمون القرآن بمجرد سماعه أو قراءته لأن الله تعالى أودع في القرآن ـ بحكم أنه معجزة الإسلام ـ سرًا إلهيًا، لعل أبرز ما فيه النظم الموسيقي، فكما أنك عندما تسمع سيمفونية رائعة، فإنك تتأثر بها بمجرد سماعها، ولا تكون في حاجة لشرح، بل إن أي شرح قد يفسدها، فكذلك القرآن، فالقرآن له ملكة الهداية بمجرد سماعه، وما كان الرسول ليفعل شيئاً لكي يحول وثني مكة إلى الإسلام إلا قراءة القرآن ، وقد أمره الله «وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ» ، فما تلاه على أحد من كفرة قريش إلا تزلزل الشرك في نفسه .. وقد يؤمن توًا، ونحن نعلم أن عمر بن الخطاب كان أشد الناس عداوة للذين آمنوا، وأنه صفع أخته عندما آمنت حتى نزف الدم من أنفها، ولكنه ما إن قرأ آيات منه حتى انقلب الموقف، وقال دلوني على محمد .. وأعلن إيمانه .

وقال جبير بن مطعم سمعت رسول الله يقرأ في سورة الطور فما سمعت أحدًا أحسن صوتاً أو قراءة، فلما سمعته يقرأ «أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ» خلت أن فؤادي قد انصدع، وكان جبير عندما سمع هذا لا يزال مشركاً، وإنما كان قد قدم لفداء أسرى بدر، بل إن الرسول نفسه لما طلب إلى عبد الله بن مسعود أن يقرأ عليه النساء ، فلما بلغ «فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا»، قال حسبك .. فالتفت إليه فإذا عيناه تذرفان .

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم» ، العدد (٢٢٥٠) ، بتاريخ ٢٠١٠/٨/١١م .

وعندما أوفدت قريش عتبة بن ربيعة وهو سيدها ليثني الرسول عن مواصلة دعوته، وأخذ عتبة يعد الرسول بالمال والجاه حتى انتهى، فأخذ الرسول يتلو عليه قوله تعالى :

«حم (١) تَنزِيلٌ مِنْ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٢) كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣) بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ (٤) وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ (٥) قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ (٦) الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (٧) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (٨) قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ (١٠) ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (١٢) فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ» ، فقال حسبك .

وما أن أقبل عائدًا إلى قريش حتى قال أبو جهل «أحلف لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به» .

كلهم كانوا يقولون «حسبك»، أي كفى ، فقد لمس القرآن شغاف قلوبهم وأعماقها .

أما سائقو التاكسي وأصحاب المقاهي الذين يفتحون الراديو لينطلق القرآن وهم يتشاكسون أو يتنابذون أو يلعنون، فلا قيمة لهذا، فهو طقس وليس ديناً ، وهو صورة من صور إساءة التعامل مع القرآن وسوء الفهم له .



[٢]

«الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ»(*)

هذه هي أول ما يستفتح به القرآن فاتحته .. تلك الفاتحة التي صاغها القرآن على لسان المؤمنين ليعلمهم ما يقولون .

الفاتحة ابتهال من أرق وأعذب وأجمل الابتهالات التي يتقدم بها المسلم إلى الله .

والمفروض أنه يتلوها سبعة عشر مرة في اليوم على الأقل عند أدائه للصلوات المفروضة على مدار اليوم، ولو أن المسلم قرأها قراءة واعية لجعلت الإحساس بالسلام والرضاء والنعمة في رحمة الله تملأ نفسه، وهي تخلصه من القلق والاضطراب، وتزيل ما زحف على النفس من مؤثرات سيئة ما بين كل صلاة إلى الأخرى حتى يسلم نفسه من صلاة العشاء للنوم، وعندما يقوم في الصباح يكون أول ما يدور على لسانه «الْحَمْدُ لِلَّهِ» .

بل إن المسلم عندما يسئل عن حاله فيغلب أن يجيب «الْحَمْدُ لِلَّهِ» .

لا تتضح قيمة الشعور بالرضا إلا عندما تقارنه بما يمكن أن يحدث عندما يسيطر على النفس القلق والاضطراب .

إن القلق على النفس يشبه الصداع عندما يحدث في الإنسان لا يجعله يهنأ أو يستقر طوال اليوم .

* * *

إن كل الابتهال الذي تتضمنه الفاتحة هو أن يهدينا الله إلى الصراط المستقيم .

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم» ، العدد (٢٢٥١) ، بتاريخ ٢٠١٠/٨/١٢م .

فاذا كان الحال مخالفاً للصراط المستقيم، فمن المستحيل أن يوجد رضا به .

إن رضا النفس في هذه الحالة يكون الشرط اللازم للقيام بإصلاح واع سليم بعيد عن لوثات الغضب والسخط والعاطفة بحيث تشوب العوامل الذاتية العوامل الموضوعية للإصلاح، وتتحرف بها .

ويكون الرضا ليس على ما نحن عليه ، ولكن على ما أراده الله وقضى به، وهو في هذه الحالة : والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

ولكننا لو فرضنا جدلاً أن الشعور بالرضا يكون على حساب سلامة الأوضاع، أو أنه يقعد عن العمل لما هو أحسن وبلوغ ما هو أفضل، فإننا مع تسليمنا بأن هذا أمر سيئ ووضع سقيم، فنحن من ناحية أخرى نعلم أن عدم الرضا هو «الاغتراب»، أي الشعور بعدم التكامل .

فنحن في الوقت نفسه نعلم أن أسوأ شيء في هذا العصر، والذي عجزت الحضارة عن الشفاء منه هو «الاغتـــــراب»، أي الإحساس بعدم التكامل .. وعدم الرضا .

من هنا فإن الشعور بالرضا يكون قيمة أولى خاصة إذا وضعنا في اعتبارنا أن المعيار المادي الذي يجعل المثل الأعلى أن يحصل الإنسان على كل ما يريده، فهناك معيار يجعل المثل الأعلى هو ما يستغنى عنه الإنسان، وأن يعيش مع نفسه فقير خيرًا من أن يخسر نفسه ويكسب كل ما يجود به العصر .



[٣]

«الفرق بين التفسير والاستلهام»(*)

بعد أن كتبنا «إلهامات قرآنية» في رمضان من العام الماضي كتب ناقد «إن جمال البنا يناقض نفسه .. فهو يدعو إلى إطراح التفاسير وعدم الأخذ بها في حين يضع هو نفسه تفسيرًا» .

وهذا خطأ لا يستقيم وحتى لا يتكرر نقول :

إن التفسير الذي استبعدناه هو أن يقول المفسر أن هذه الآية نزلت في فلان، ويسرد قصة طويلة عن فلان وما عمله مما اقتضى نزول الآية، فيحصر الآية في فلان وقصته، على حين أراد القرآن إرساء مبدأ أو حكم عام .

وأن يقول المفسر هذه الآية نسخت بالآية الفلانية، وما إلى هذا من إصدار الأحكام على الآيات .

التفسير يعطي الكلمات العامة معنى خاصًا فيقول «غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ» اليهود ، و«وَلا الضَّالِّينَ» النصارى، و«لَهْوَ الْحَدِيثِ» الغناء، «وسفهاءكم» النساء والصبيان، وأمثال هذا مما لا يتسع له المجال .

ومعروف أن الفقهاء اشترطوا فيمن يقدم على التفسير أن يستعد لذلك بأن يحكم علوم اللغة وما فيها من نحو وصرف وبيان .. إلخ .. وأن يعلم الناسخ من المنسوخ، وأن يعلم أسباب النزول، وأن يميز بين المكي والمدني من الآيات، وأن يلم بالحديث النبوي وأحكامه، ولسان العرب وعاداتهم .. إلخ .. فجعلوا من التفسير دراسة، فيها دارس ومدروس، وهذا هو سر جبروتهم وغرورهم بما لديهم من «أسلمة»، وفي الوقت نفسه فهم في الحقيقة لم يقدموا لنا ماذا يريد القرآن، ولكن قدموا لنا ما في أنفسهم وما لديهم من مهارات وقدرات في التعامل مع القرآن والتغلب مع صعوبته .

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم» ، العدد (٢٢٥٢) ، بتاريخ ٢٠١٠/٨/١٣م .

وكأنى بالقرآن يقول لهم «ويلكم أتعلمون الله بدينه» ؟!

«أتحكمون آراءكم وثقافاتكم في النص المقدس» ؟!

الإلهام غير هذا .. والمستلهم يدخل عالم القرآن وقد غسل نفسه وروحه من كل ما وضعوه من منهجيات وفنون، وأسلم قلبه للقرآن .. دخله كما يدخل الحاج مكة محرمًا .. متجردًا .. ليس على شفتيه سوى «لبيك اللهم لبيك» .

عندما يسلم المستلهم قلبه للقرآن .. يفيض عليه القرآن من المعاني .. والتوجيهات .. والإيماءات .

فالفرق بين المفسر والمستلهم، أن المفسر يعمل بما أطلقوا عليه «علوم القرآن» من ناسخ منسوخ وأسباب نزول القرآن وعلوم اللغة ولسان العرب وإلمام بالحديث النبوي ليخرج بحكم يدعي أنه حكم الآية .

أما المستلهم فإنه يتلقى من القرآن عندما يسلمه قلبه ما يفيض به عليه من إيحاءات .. ومعاني .. وتوجيهات، وهو وإن كان يتلقاها على وجه القطع من القرآن فإنه لا ينسبها إلى القرآن؛ لأن من المحتمل أنه عجز، أو تأثر، أو غير ذلك، فهو ينسب هذه المعاني والتوجيهات إلى نفسه، فيقول هذا ما استوعبت من إلهام القرآن، فإن أصبت فالفضل للقرآن، وإن أخطأت فمن نفسي .

وهناك فرق آخر هو أن التفسير يستهدف الأحكام ويقطع بها وبنسبتها إلى القرآن الكريم، أما الاستلهام فهو يكون عن توجيهات، ومعان، وإيحاءات، ويؤكد المستلهم أنه هو ما استوعبه ، فالمسئولية عليه .



[٤]

«وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ»(*)

ذكرت في كلمة سابقة أن القرآن يفهم بالانطباع وليس عن طريق التفسير، وأنه يؤدي رسالته وهي الهداية عن هذا الطريق.

وأريد أن أدل القراء اليوم على طريقة أخرى تمكنهم من أن يفهوا القرآن دون أن يرهقوا أفهامهم بما في التفسير من افتياتات.

تلك هي أن القرآن الكريم أشبه بثوب كبير مطوي عند بائع قماش، وعندما تذهب له لاختيار ثوب لبدلتك، فإن البائع يحمل الثوب على يديه ويفتح منه ما يماثل نصف متر، ومن هذه المساحة تستطيع أن تحكم على لونه ونسجه، لحمته وليونته .. إلخ، فإذا أعجبك فإنك تشير للبائع فيقطع لك ثلاثة أمتار تكفي بدلتك، لا أحد يفك أو يطلب أن يفك الثوب أو أن يتحراه من أوله لآخره.

ومن إعجاز القرآن أنه يطبع أسراره في آيات قصار تملك من قوة المعنى ومن جزالة المبنى ومن النظم الموسيقي ما يكفي للهداية.

خذ مثلاً سورة «العصر»: «وَالْعَصْرِ ❖ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ❖ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ».

إن «وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ» تبلور سياسة المؤمن وما يأخذ من نفسه من التزام للحق وتواصي على الصبر.

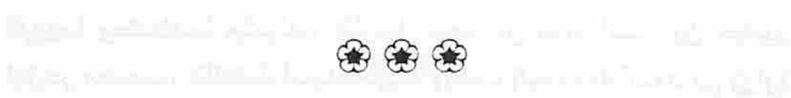
الآيتان الأخيرتان من سورة البقرة (٢٨٥ و٢٨٦) «آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٢٨٥) لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم»، العدد (٢٢٥٣)، بتاريخ ٢٠١٠/٨/١٤م.

لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ» .

والقرآن حافل بالآيات والمقاطع التي إذا تدبرتها قدمت إليك الهــداية، بل إن الفاتحة تقوم بهذه الرســالة، والمســلمون جميعًا يكررونها في صلواتهم ولا يتأثرون، إما لأنهم لا يعطونها قلوبهم أو لأنهم يلجأون إلى التفاسير المفسدة .

والمسلم النمطي غير مكلف إلا بأن يقرأ القرآن ما استطاع، وأن يحفظ من السور والآيات ما يؤدي بها صلواته دون أن يتصور أن عليه الإلمام بالقرآن كله، فهذا ما لم يتصوره الصحابة الذين كانوا يحفظون عشر آيات، ثم يلحظوا ما أثمرته في نفوسهم .



[٥]

«فتحت المدينـة بالقرآن»(*)

ليست هذه من آيات الكتاب المبين ، ولكنها كلمة حاسمة من كلمات السيدة عائشة .

من المعروف أن الرسول ظل في مكة ثلاثة عشر عامًا يدعو قريشًا فلا يجد إلا الأذى والاضطهاد حتى قيض الله فريقًا من الأنصار كانوا يحجون فدعاهم إلى الإسلام فأسلموا ، فأرسل معهم أحد عباقرة وأبطال وشهداء الإسلام «مصعب بن عمير»، وكان فتى شاب، وعكف مصعب يعلم الأنصار الإسلام وهو ينتشر بينهم شيئاً فشيئاً ، وساء ذلك سادتهم «سعد بن معاذ وأسيد بن حضير» سيدا قومهما وكلاهما مشرك، فأرسل سعد بن معاذ أسيد بن حضير ليزجر مصعب، فالتقط أسيد حريته وذهب إليه ومعه أسعد بن زرارة من مسلمي الأنصـــار، فقال له : ما جاء بكما إلينا تسفهان ضعفاءنا ... ؟ اعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة !!، فقال مصعب : أو تجلس فتسمع فإن رضيت أمرًا قبلته .. وإن كرهت كف عنك ما تكره، قال : أنصفت، فقرأ عليه مصعب القرآن، قالا فيما يذكر عنهما والله لعرفنا في وجهه الإسلام قبل أت يتكلم، ثم قال : ما أحسن هذا الكلام وأجمله وأسلم ، وعاد إلى سعد بن معاذ فقال : كلمت الرجلين.فوالله ما رأيت بهما بأسًا ، فقال سعد والله ما أراك أغنيت شيئاً ثم خرج إليهما فوقف عليهما متشتمًا ، ثم قال لأسعد بن زرارة يا أبا إمامة أما والله لولا بيني وبينك من القرابة (وكان ابن خالته) ما رمت هذا مني .. أتغشانا في دارنا بما نكره، فقال له مصعب مثل ما قال لصاحبه، فقال له أنصفت، ولما عاد قال قومه نحلف بالله لقد رجع إليكم سعد بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم، فلما وقف عليهم قال يا بني عبد الأشهل

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم» ، العدد (٢٢٥٤) ، بتاريخ ٢٠١٠/٨/١٥م .

كيف تعلمون أمري فيكم ؟ قالوا سـيدنا وأفضلنا رأيًا وأيمننا نقيبة، قال فإن كلام رجالكم ونسائكم على حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله .

وهكذا فتحت المدينة بالقرآن على حد تعبير عائشة، فإذا كانت قراءة القرآن قد أثارت في المشركين هذه المشاعر فكيف بها بالنسبة للمسلمين ؟ ليس هناك مبالغة إذا قلنا إن الدور التربوي للصلاة خلف الرسـول باعتبارها المناسبة المقررة لتلاوة القرآن الكريم هو أعظم ما كوّن شخصيات الصحابة وما جعلهم قادة وحكامًا بعد أن كانوا باعة وتجارًا، وهذا هو السبب في إطالة الرسول للقراءة رغم ما عرف عنه من أنه في صلاة الجماعة كان يؤثر القصد ملاحظة للمريض والعجوز والأم ممن يصلون وراءه، ولكنه كان يطيل عندما يطمئن إلى أن خاصة أصحابه هم الذين يصلون وراءه ليعطيهم الفرصة لاستيعاب معاني القرآن ؛ لأن هذا هو الذي سيخلق نفوسهم خلقاً جديدًا يهيئهم لحمل مسئوليات الدعوة والقيادة والقيام بثورة الإسلام .

إن فتح المدينة ـ الذي تم بالقرآن ـ هو فتح الفتوح ، وهو الفتح الذي قامت عليه وبفضله بعده الفتوح .

ومن هنا يتضح فساد دعوى انتشار الإسلام بالسيف، لقد انتشر الإسلام بالقرآن ، وما كسبه الإسلام عن طريق القرآن هو ما قدر له البقاء، أما ما اكتسبه الإسلام بالسيف فقد فقده بصورة مأساوية لا يكاد يتصور، وأي مأساة أكثر من وجوده لمدة ثمان قرون متواصلة والتوصل إلى نمط فريد من الحضارة تقوم على الانفتاح والسماح، ثم حتى ينتهي تمامًا كأن لم يكن له وجود .

هل خسر المسلمون الأندلس لأنهم لم يعملوا السيف في تلك الجيوب الشمالية التي تركوها حتى قويت وعظمت ؟؟ وهل لو أنهم اجتثوها تمامًا لتمكنوا من الأندلس ؟؟

تلك قضية نتركها لعلماء التاريخ خاصة عندما يضعون أمامهم مثلاً ما قامت به أوروبا من فرض المسيحية بالسلاح على مناطق

كانت كافرة بها، وأن سياسة «الاستئصال» هي التي مكنت من تجذير المسيحية، في حين أن سياسة التسامح في الأندلس هي التي أدت إلى استئصال الإسلام بها .

كائنة ما كانت نتيجة التسامح، فلنقل إن الأديان لا تفتح إلا بكلمة الإيمان، وليس بسيف السلطان، وأن ما حدث خلال ذلك إنما هو من مفارقات التاريخ .



[٦]

«سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا»(*)

كنت كلما قرأت هذا التعبير الذي تردد في القرآن على ألسنة المخالفين أتوقف وأتأمل، وينتهي بي التفكير في هذه الكلمة إلى أنها تنم على أن السلامة الموضوعية والمنطق الجلي لا يكفيان لهداية بعض الناس لارتفاق عدد كبير من العوامل على نفوسهم جعلهم يقفون هذا الموقف «سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا» .

من هذه العوامل البيئة والوراثة وقوة التقاليد التي طمست كل دعوة في نفوسهم، فلم يعودوا يرون شيئاً آخر سواها، ومن الطبيعي أن يقفوا موقف المعارضة .

ومن هذه العوامل أن هؤلاء يكونون من أكابر القوم وشيوخ قبائلهم، وأنهم آنسوا في هذه الدعوة الجديدة التي قدمها الأنبياء ما يمس وضعهم ، وما يقضي على امتيازهم، وما يجعل الصدارة لهذا الدين، ومن هنا فإنه يحارب بكل عنف وبلا هوادة، ومثلهم مثل قادة قريش الذين أصروا على حرب بدر، ولم تثنيهم هزيمتهم أن يعودوا في معركة أحد، وأن يواصلوا العداء حتى النفس الأخير.

وقد وجه الله رسوله إلى أن هناك نفوسًا لا يمكن أن تؤمن وقال له «لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ»، وأنه مهما كان حقه، ومهما كانت رغبته، فليس شرطاً أن ينتهي هذا إلى إيمان من حقت عليه الضلالة وهيمنت عليه مصلحته وأوضاعه الطبقية، ونبه الرسول أن لا بأس إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً، وقال له «إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ»، وقال له إن هناك من أطبقت عليه الضلالة فلا يحكم ظروفه الموضوعية فهو لا يمكن أن يقول

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم» ، العدد (٢٢٥٥) ، بتاريخ ٢٠١٠/٨/١٦م .

«سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا»، وعليه أن ينفض من هؤلاء، وأن يدع أمرهم لله تعالى يوم القيامة .

وهذا ما يجب أن يتنبه إليه المجددون، وإن رفض بعض الناس يجب أن لا يثبطهم أو يثير في نفوسهم اليأس، ففي مواجهة هؤلاء هناك «الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ»، فليركز عليهم .



[٧]

«بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا» (*)

يوجه القرآن الكريم أنظارنا في هذه الكلمات القلائل إلى ظاهرة من أكبر الظواهر التي تحكم المجتمعات، وبقدر ما تكون في بداياتها عنصر تواصل، فإنها بعد هذه البداية تصبح عنصر تخلف، وتكون أكبر عقبة تواجه المصلحين والمجددين الذين يريدون أن ينتشلوا الأمة من وضع متجمد تسوده السلبية على الأقل، أو حتى اللاجهد اكتفاءً بما وضعه الآباء، وينسون أن هذا لا يعني إلا النظر إلى الخلف، والسير إلى الوراء، وهذا يضاد كل عناصر حيوية المجتمع، تلك الحيوية التي تدفعه للعمل والحركة، وتوجهه لبذل الجهد، وتحمل المعاناة، والقيام بالمسئولية، والسير بالمجتمع نحو الأمام والمستقبل ، ثم إن هذه الدعوة منهم بأن لا يتبعوا إلا ما ألفوا عليه آباءهم، لا تعني سوى عدم إعمال العقل وإيثار النقل والاجترار، فكيف فاتهم أن هذا لا يعني إلا صدأ العقل، وإن صدأ العقل عندما يستمر يشل العقل، وعندئذ فإنهم فرطوا في أثمن ما أودعه الله في الإنسان، وما ميزه به على بقية خلقه، وما جعل الملائكة تسجد له، فالعقل هو الذي يميز بين الإنسان والأنعام ، ومن يهمله يصبح أسوأ من الأنعام، لأن الأنعام ليس لها عقل أصلاً، ولهذا قال القرآن «أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ»، فالعقل هو الذي يميز به الإنسان ما بين الحقيقة والخرافة، فإذا لم يعمله فإنهما يصبحان سواء .

المفارقة أن الذين يصيحون تلك الصيحة المنكرة يدعون أنهم حماة الحمى، وحفظة التراث، وذاكرة الأمة، وأن الذين يدعون إلى غير ما ألفوا عليه آباءهم يزجون في عالمهم بفكر غريب ويطبقون «أجندة أجنبية» .

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم»، العدد (٢٢٥٦) ، بتاريخ ٢٠١٠/٨/١٧م .

[٨]
«يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا»(*)

ذكر القرآن الكريم موسى ١٣٦ مرة، وهارون ٢٠ مرة، ويوسف ٢٧ مرة، ويعقوب ١٦ مرة، وإسحاق ١٧ مرة، وسليمان ١٧ مرة، وداود ١٦ مرة، في حين أنه لم يذكر محمد سوى أربع مرات.

والنقطة ليست ذكر أسماء، وإن كان له مغزاه، النقطة هي أن هذا الذكر يقترن كل مرة تقريبًا بتوجيه إلهي لبني إسرائيل وإيضاح ملابسات هذا التوجيه.

هذا الذكر المتكرر لإحدى قبائل البشر يثير السؤال: لماذا استحقت إسرائيل هذه الأهمية من الإسلام؟ والإسلام ـ كما هو معروف ـ لم يظهر في مصر، ولا فلسطين حيث جرت أحداث ومواقع بني إسرائيل.

الأهمية أن الله تعالى أراد أن يضرب المثل بإحدى قبائل البشرية التي ينعم عليها بالكثير، ويختصها بمزايا، ويكل إليها رسالة، ولكنها بدلاً من أن تعترف وتشكر وتنهض بما أراده الله لها فإنها تنكرت فقتلت الأنبياء، وتمردت على أحكام الدين، وارتكبت الموبقات، فأنزلها الله من المقام الكريم إلى أسفل سافلين، وضرب بها المثل في العقوق والجحود والنكران.

وأظهر التاريخ المعاصر أن هذه القبيلة تستطيع أن تؤدي دورًا أكبر بكثير مما كانت تؤديه في عصر الرسالة أو ما قبله، وأن القرآن الكريم استشف ذلك عندما ضرب بها المثل دون غيرها، فما من قبيلة في العصر الحديث استطاعت أن تسخر أقوى دولة في العالم (أمريكا) بحيث يتفق ساستها ـ على اختلافهم ـ في تأييد إسرائيل ودعمها حتى عندما يتطلب الأمر الضرر بمصلحة أمريكا نفسها، حتى أصبحت وهي أصغر دول العالم تسيطر على مقاليد العالم.

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم»، العدد (٢٢٥٧)، بتاريخ ٢٠١٠/٨/١٨م.

القرآن إذًا أحسن عندما ضرب المثل بها ويُرَدُّ على تساؤلات الكثيرين عن سر هذا الاختصاص، فهي المثل الأعلى للشر والعقوق والعدوان .

ومن أجل هذا كان القرآن كلما يتوجه بالحديث إلى إسرائيل يقول : «يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (٤٠) وَآمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ (٤١) وَلا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ» .



[٩]
«فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ»(*)

السؤال الذي يتردد في فكر المفكرين الذين يعالجون قضية الدين معالجة علمية وعلى أساس الأديان المقارنة، بل وباعتبار الدين «ظاهرة اجتماعية» هو هل الدين نفسه ـ كائناً ما كان ـ له طبيعة حفاظية يعمل لإبقاء الوضع على ما هو عليه ، أو أن هذه الصفة إنما هي من سوء فهم الدين من ناحية أو من أثر المؤسسة الدينية التي تعمل بطبيعتها لبقاء الوضع على ما هو عليه ؛ لأنه هو الذي يضمن لها الصفة الممتازة، ويكفل لها الوظائف المرموقة والتمثيل الاحتكاري للدين .

لقد عجز هؤلاء عن التفرق ما بين الأديان السماوية التي تمثل المرحلة المتقدمة للأديان عن المرحلة الأولى الوثنية وما فيها من سحر أو دجل أو كهانة، كما أنهم عجزوا عن التفريق ما بين المرحلة الأولى للأديان عندما يكون الدين تحت قيادة النبي، وما بين المرحلة التالية التي تفقد فيها الأديان أنبياءها وهم القادة المؤهلون ، ويتولى الأتباع والسدنة، ثم تظهر المؤسسة الدينية المحتكرة التي تعمل عادة بالتحالف مع الحاكم وتستهدف الإبقاء على الأوضاع القائمة .

إن ما يحسب على الأديان هو ما جاءت به الأديان في كتبها بلغتها الأصلية قبل أن تعيث فيها الترجمات فسادًا ، وما قام به بالفعل الأنبياء أنفسهم وليس السدنة .

إذا لحظنا هذا التكييف فإننا لا نستغرب أن يطلق القرآن صيحته «فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ» .

وفي هاتين الكلمتين نجد في الأولى أمرًا بالاستباق ، ونجد في الثانية أن هدف هذا الاستباق هو «الْخَيْرَاتِ» .

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم» ، العدد (٢٢٥٨) ، بتاريخ ٢٠١٠/٨/١٩م .

إن القرآن لا يقدم توصية، ولكنه يوجه أمرًا يفرض أن يعمل كل مسلم لتحقيقه، ومعنى هذا أن يكون كل مسلم «متسابق».

ما أبعد هذا عما في أذهان بعض المسلمين أو بعض الفقهاء، خاصة إذا أضفنا إليه ما تطرق إلى نفوسهم عن «التوكل» الذي جعل البعض يفهم أنه إذا اعتزم التوكل تمامًا فإن الله سيرزقه من حيث لا يحتسب، وعلى هذا الأساس جلس أحدهم في المسجد متكلاً، وأمضى يومًا كاملاً صابرًا منتظرًا، وفي اليوم التالي جاء رجل يقول: هل من يريد الطعام؟ ولكن الرجل سكت حتى لا يفسد توكله، فانصرف الرجل، وفي اليوم الثالث وقد فعل الجوع فعله، جاء الرجل يسأل عمن يريد طعامًا؟ خشى أن يتكلم فيفسد توكله، فتنحنح بصوت عالٍ، فتنبه إليه الرجل ودعاه فقال «هل كان لابد أن أتنحنح»؟

القرآن يريد من المسلم أن يدخل في سباق، وأن يكون هدف هذا السباق هو «الْخَيْرَاتِ»، لم يقل القرآن: الإسلام .. أو الصلاة .. أو أن يعمل عمرة، ولكن قال «الْخَيْرَاتِ» ليعم كل عمل طيب فيدخل فيه العلم والمعرفة، ويدخل فيه إتقان العمل وإحكامه، ويدخل فيه رعاية الجار والصديق، ويدخل حسن مشاركته لزوجته إلى آخر ما تعطيه كلمة خير.

والقرآن في صياغته «فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ»، هو كما في صياغته «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» يذكر المضمون دون أن يذكر الشكل الذي يأخذه حتى لا يحدد أو ينحصر، وهكذا يكون الباب مفتوحًا على مصراعيه.



[١٠]
«وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ»(*)

في طفولتي وعند تحفيظنا لجزء «عم» كانت هذه السورة من أصعب السور عليَّ، كما كان معناها مما لم أتفهمه.

إن الآية باختصار تحذر مما نقول عنه «الكيل بمكيالين»، وهي تعنى بعالم البيع والشراء عندما يبيع أحدهم شيئاً فلا يفي الكيل، وعندما يشتري فإنه يريد زائدًا عن الكيل، فهو يطفف عندما يبيع - أي ينقص حيناً - وهو يستوفي ويزيد حيناً آخر - عندما يشتري فكأنه يكيل بمكيالين.

والسورة تنطبق على معاملات الآحاد بعضهم بعضًا بائعين ومشترين بالكيل أو بالوزن، ولكنها أيضًا تنطبق في وصفها وفي توعدها بالعذاب الشديد، والمحاسبة أمام الله على تصرفات الدول الكبرى مع الدول الصغرى كالولايات المتحدة فهي مثلاً تبحث في كل خرم إبرة عن إرهاب مزعوم، وتتجسس على إيران وتراقب عملها الذري، وتثير الدنيا وتقعدها لذلك، في حين أنها تغض الطرف عن إسرائيل، وهي التي بدأت الإرهاب في العصر الحديث ووجهته نحو بريطانيا قبل أن توجهه للعرب ففجرت فندق الملك داود مقر القيادة البريطانية، وقتلت ضباطاً بريطانيين وعلقتهم على الأشجار حتى أصبح كبيرهم «بيجين» شخصًا مطلوبًا أمام المحاكم، وتعلق اليافطات التي تحمل صورته واسمه تحت لقب «WANTED»، أي مطلوب القبض عليه، وهي تتجاهل النشاط الذري الذي تقوم به عياناً جهارًا حتى أصبحت تستحوز على مائتي قنبلة ذرية تكفي لنسف وتدمير العالم لأكثر من مرة.

وداخل كل دولة من دول العالم الحديث نجد الكيل بمكيالين رغم وجود القانون والدستور، لأنه لا يمكن للدولة أن

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم»، العدد (٢٢٥٩)، بتاريخ ٢٠/٨/٢٠١٠م.

تراقب ما يعمل الناس، والناس يكيلون للأبيض بكيل وللأسود بكيل آخر، للأوروبيين بكيل وللآسيويين والأفريقيين بكيل آخر، وللأغنياء بكيل وللفقراء بكيل آخر، وللرجال بكيل وللنساء بكيل آخر.

رغم أن هذه المجتمعات كلها تقدس القانون وأن دساتيرها كلها تقرر المساواة، ولكن ما تعرفه القوانين أو تذكرة الدساتير شيء، وما يقر في النفوس شيء، وهو يعود إلى التاريخ والتقاليد، وما استقر في الأعماق من مفاهيم، وكلها تدعم التفرقة.

إن التطفيف أصبح مشكلة على المستويات المحلية، وعجزت القوانين عن ملاحقة الغشاشين في صناعات البناء، والصناعات الغذائية، وفي الأسمنت ومواد البناء .. إلخ، ولكن المسئولين مع ذلك لديهم الآليات التي تضبط ذلك ، ولكن الأمر يختلف على المستوى الدولي، فحتى المحكمة الجنائية الدولية فإن الولايات المتحدة نجحت في أن يكون للمسئولين الأمريكيين حصانة من اختصاصها، في حين أنها تصر على طلب «البشير» رئيس السودان.

وموقف هذه الدول يعود إلى أنها لا تؤمن أنها ستقف يومًا ما موقف المساءلة أمام الله، لأن أوروبا قد آمنت من وقت طويل بأن الله قد مات!



[١١]
«أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ»(*)

عندما يجعل المجتمع «وازع الربح» هو الهدف الأسمى كما هو الحال في المجتمعات الرأسمالية، فليس من الغريب أن تكون القوة الدافعة له هي «التكاثر»، فمن ليس لديه مليون يتوق ويكافح ليصل إلى المليون، وعندما يصل إلى المليون، يجد أن سبيل التكاثر للوصول إلى المليون الثاني أسهل بكثير مما بذله في سبيل المليون الأول وعندئذ لا يتردد، وتستمر عملية التكاثر «حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ»، وعندئذ فحسب تقف المطامع ويعود الإنسان كما بدأ لا يطلب إلا حفرة ضيقة هي القبر، وقد يوضع في تابوت ويغلق بالمسامير، لا تفيده الملايين في شيء.

وعندما مات أحد الأثرياء، قال رجل لعمر بن الخطاب: إنه ترك ثلاثين ألفاً، فقال عمر: «ولكنها لا تتركه».

فما حسبه انتصارًا وإنجازًا سيصبح امتحاناً وبلاءً، وسيحاسب عليه «ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنْ النَّعِيمِ».

وقد قال بعض المفسرين عن هذا النعيم الذي سنحاسب عليه إنه «الماء البارد»، فلم يكن في خاطر الأعرابي في صحراء قاحلة وفي حر يصهر الجلود أشهى من كوب من «الماء البارد».

ولكن أين يذهب هذا التفسير من عالم التكاثر الرهيب، عالم الكفاح في منافسة لا تقل عن المصارعة القاتلة.

أين هو عالم السيارات الفارهة والفيلات الأنيقة المترفة؟

أين هو من اليخوت والطائرات الخاصة؟ ومن المنتجعات في مختلف دول العالم؟

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم»، العدد (٢٢٦٠)، بتاريخ ٢٠١٠/٨/٢١م.

كان الرأسمالي الأمريكي روكفلر في صناعة البترول مثل أتيلا وجنكيزخان في التتار، لقد دمر بلا رحمة كل شركات البترول المنافسة بطرق شريفة وغير شريفة ليكوّن شركته «ستاندرد أول» التي أصبحت الشركة «القياسية» في صناعة البترول، وأعيى الحكومة حتى سنت قانوناً يحرم الاحتكارات، ولكنه تهرب منه .

وفي أخريات حياته نصحه مستشاروه بأن يعمل لتحسين صورته في الرأي العام ، فالتقطت صور له مع أطفال في أحياء فقيرة .. إلخ ، كما أنه تنبه - قبل أن يزور المقابر - إلى إقامة مؤسسة خيرية كبرى خصص لها الملايين .

كأنما استفاد روكفلر من الآية، وانتفع من التحذير فيها بإقامة مؤسسته الخيرية.

ونحن نسمع حاليًا أن أكبر «مليونيرات» أمريكا يتبرعون بنصف ملياراتهم، وربما أكثر لمشروعات خيرية خالصة .

ترى هل وصلت سورة التكاثر إلى ما وراء البحار حتى طرقت مسامع أصحاب البلايين، ولم يسمعها العرب الذين أنزلت لهم وفيهم .

وقد أثار بعض الكتاب ملاحظات حول تعبير «زُرْتُمْ» بصيغة الماضي واللبس الذي قد يؤدي لمعنى زيارة القبور وليس الدفن فيها ، ونسى أن القرآن الكريم في تخيره للألفاظ فإنه يلحظ بجانب المعنى المألوف الوزن الموسيقي للكلمة ودرجة تآلفها مع ما سبقها ولحقها ، ويعطي ذلك أولوية لأنه هو الذي يؤثر في النفوس ويحقق الهداية ومن أجل هذا استخدم «زُرْتُمْ»، وجاء التركيز في المعنى على «الْمَقَابِرَ»، لأن القرآن حاكم في اللغة، كما هو حاكم في العقيدة، وله تعامله الخاص معها الذي قد لا يفهمه النحويون الجفاة .



[١٢]
«وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ..»(*)

الزكاة ثالث أركان الإسلام في الحديث المعروف، وهي تأتي بعد الشهادتين وبعد الصلاة .

والقرآن يقرن دائمًا ما بين إقامة الصلاة .. وإيتاء الزكاة، فلا يقول «يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ» إلا ويأتي بعدها «وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ» .

فهي من هذه الناحية ذات صفة عقيدية مقدسة، ولكنها من ناحية أخرى لها بحكم طبيعتها صفة مجتمعية تربطها بالحياة الدنيا .

وهي الفريضة الوحيدة التي أوجبت حربًا على من رفضها، فالإسلام لا يحارب مسلمين لأنهم لا يقيمون الصلاة ولكنه حارب مسلمين لأنهم رفضوا الزكاة .

ذلك لأن الصلاة مهما كانت قداستها فأمرها إلى الله، وهو يعاقب على إهمالها في الآخرة، ولكن الزكاة لها صفة «دنيوية» مجتمعية لأنها تمثل التكافل الاقتصادي وإهمال هذا المرفق يمكن أن يسمح بتحول المجتمع الإسلامي من مجتمع العدل والمساواة إلى مجتمع الظلم والاستغلال، ويمكن أن يوجد فيه ملايين من الجياع جنبًا إلى جنب مئات من الأثرياء المترفين .

من أجل هذا جاز لأبي بكر أن يحارب الذين رفضوا دفع الزكاة .

لقد تنبه الإسلام منذ ألف وأربعمائة عام إلى «الضمان الاجتماعي» أو التأمينات الاجتماعية التي لم يعرفها المجتمع الأوروبي إلا حديثاً، والصورة التي جاءت بها الزكاة أفضل من صور معظم نظم التأمين الاجتماعي لأنها :

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم»، العدد (٢٢٦١)، بتاريخ ٢٠١٠/٨/٢٢م .

(١) حق معلوم ـ وليست مِنَّة وإحساناً أو فضلاً من الأغنياء ـ إنها حق فرضه القرآن والسُنة وأوجب النظام الاقتصادي للإسلام على المسئولين جبايتها والإشراف على توزيعها على مستحقيها ونص الشافعي على أن للفقير أحقية استحقاق المال حتى صار بمنزله المشترك بين صاحبه وبين الفقير، ويجوز للفقير أن يأخذ مقدار الزكاة إذا ظفر به وكان صاحبه قد امتنع عن أدائه .

(٢) وعلى هذا الأصل ترتب أصل آخر هو أنه ليس على مستحقي الزكاة أن يدفعوا شيئاً لاستحقاقها ومعظم التأمينات والمعاش تشترط أن يدفع المستحق قسطاً أو يخصم من مرتبه حتى يستحق التأمين، والنظم التي يعفى فيها المستحقون من دفع أقساط يكون التأمين فيها من الهزال بحيث يستكمل عادة بتأمين إضافي يسهم العامل فيه بدفع أقساط متفاوتة .

(٣) لما كان مبرر الأحقية في الزكاة هو الاحتياج، فإن الزكاة تكون حقا للمحتاجين دون أن تكون مقصورة على فئات دون فئات وفي معظم الدول تكون التأمينات الاجتماعية للعاملين بأجر دون الحرفيين أو المهنيين أو صغار التجار والفلاحين الذين يكون عليهم أن يلوذوا بنظم التأمين التجارية وقد شمل استحقاق الزكاة المحتاجين حتى من غير المسلمين في بعض المذاهب .

(٤) ينبني على هذا الأصل أن تكون الزكاة على قدر الحاجة على حين أن التأمينات الاجتماعية في العالم بأسره تقدر بمعايير أخرى خلاف قدر الاحتياج مثل مدة الخدمة وقيمة المرتب وقيمة القسط المدفوع .. إلخ، وهذه كلها لا علاقة لها بحجم الحاجة وهي بصفة عامة تقلل من قيمة التأمين لأشد الفئات احتياجًا .

إن الزكاة تضع حدا معقولاً للإعفاء فلا يدخل في نصاب الزكاة دار السكن والثياب الخاصة والقوت المدخر لطعام العامل

وآلة العمل التي يحتاجها المكتسب بيده ودابة الركوب، وأن يتوفر بعد هذا كله فائض كاف.

وكل من يدرس المجتمع الحديث يجد أن ضحالة العدالة الاجتماعية من أكبر الأسباب التي كدرت سماء صفوه، وأحالت سلامه الاجتماعي إلى حرب طبقية، وأن ظهور النقابات وجهودها البطولية لم تنجح في تحقيق «الندية» بين الطرفين، ولو كان لدى هذه الدول معرفة بالزكاة لأسهمت هذه المعرفة في استكمال نظم التأمين الاجتماعي والضمان الاجتماعي، ولكنها من ناحية أخرى لن تستطيع أن تجعلها فريضة في دين لها من القداسة ما للدين.

السؤال الممض هو أين الزكاة الآن ؟!



[١٣]

«يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ»(*)

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب مقدس في القرآن الكريم، يكثر من الأمر باتباعه والمحافظة عليه، ونجد أجمل وأشمل ذكر له في الآية ٧١ من سورة التوبة «وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ».

فهنا نجد النص عليه شاملاً المؤمنين والمؤمنات وسابقاً للصلاة والزكاة.

كما نجد التحذير من إهماله في تقريع بني إسرائيل «كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ».

عندما أوجب القرآن على المسلمين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فإنه أوجد الضمير الاجتماعي في نفوسهم هذا الضمير الذي يتحرك لا لمصلحة الفرد، ولكن لمصلحة المجموع، والذي يقبل طواعية أن يضحي بمصلحته الخاصة لحساب المجتمع، وقد امتدح القرآن الأنصار الذين «يُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ»، وأي مجتمع لابد وأن يتطلب جماعة على استعداد للتضحية بنفسها حماية له، وبدون ذلك يتعرض هذا المجتمع لهجوم الأعداء وللقضاء على استقلاله، وأن يكون الشعب بأسره تبعًا للفاتح، فالضمير الاجتماعي شرط رئيسي في وجود المجتمع وبقائه وحمايته من العدوان.

لم يفهم المعاصرون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لأنهم أبناء مجتمع رأسمالي القوة الدافعة فيه هي «وازع الربح»، أو أبناء

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم»، العدد (٢٢٦٢)، بتاريخ ٢٠١٠/٨/٢٣م.

ديمقراطية تقوم على الفرد، وترى أن تدخل الفرد فيما لا مصلحة مادية له تطفل وتجاوز، ولهذا ترفض المحكمة دعوى لأن رافعها ليس له مصلحة فيها .

المجتمع القرآني يرفض هذا المنطق .. إنه يرفض مجتمع «الأنامالية» .. يرفض مجتمع السلبية، ويرى أن أي شيء يمس المجتمع إنما يمس كل فرد، وأي فرد يكون من حقه التدخل، فالمجتمع جسم واحد يشد بعضه بعضًا، والمسلمون عدول يسعى بذمتهم أدناهم، والرسول يقول «من غشنا فليس منا» و «من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم» .

وحقيقة الحال أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أسيء فهمه قديمًا وحديثاً ففي القديم أخذ شكل تحطيم أواني الخمر، وتدمير الآلات الموسيقية، وفي الحديث أخذ شكل رفع قضية حسبة على كل مفكر يجدد في الإسلام، أو كل فنان أو شاعر أو روائي، يعبر عن مشاعره حين يظن العوام أنه يسيء إلى الدين .

إن هذا العمل يناقض فلسفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر التي تقوم على حرية الأفراد في التعبير عن مشاعرهم، فلا يمكن أن يكون وسيلة لإخراس أصوات أو مصادرة مطبوعات، والأسوأ التفريق بين رجل وامرأته، إعمالاً «لأرجح الأقوال في مذهب أبي حنيفة» إذا اعتبر زوجها وهو مفكر إسلامي زنديقاً .. ملحدًا .. مرتدًا .

إن القرآن عندما جعل من مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فريضة، فإنه جعل الضمير الاجتماعي جزءًا من العقيدة، وهو الأمر الذي فشل فيه كل الفلاسفة والمشرعين الذين قصارى ما وصلوا إليه أنه واجب يفترض أن يؤدى دون أن يكون فريضة دينية ملزمة .



[١٤]
«وَمَا عَلَيْكَ أَلاَّ يَزَّكَّى» (*)

خاطب الله تعالى رسوله بهذا الاستفهام الاستنكاري عندما كان منهمكاً في محاولة هداية بعض علية القوم، وشغله هذا عن إجابة رجل أعمى فقير من عامة المسلمين، جاء يسأله عن مسألة.

وليست أهميـــة الجمـلة في مبناها اللغوي وأنها استفهام استنكاري، ولكن أيضًا في معناها، لأنه من البدائه أن مهمة الرسول هي هداية الناس، وأنه كان منهمكاً في هذه إحـــدى محاولات تحقيق الهداية التي كان يرجو من وراءها كسبًا كبير للمؤمنين، ولكن ذلك شغله عن الرد على رجل جاء يسأل ويطلب المعرفة، وأدخل هذا عنصرًا «طبقيًا» في القضية، والإسلام يُسوي بين الناس جميعًا، بل قد يجعل للفقير والضعيف أولوية، ومن هنا جاء الاستنكار.

أتصور أنه لو لم يوجد هذا العنصر ـ ليوجه القرآن الرسول لأن يقصد في الطلب ـ حتى لو كان الطلب هو الهداية، لأن مهمة الرسول هي عرض الهداية دون تحقيق الهداية بالفعل لأن مهمة الرسول مقصورة على التبليغ، أما الهداية فإن الله وحده هو الذي يهدي، ولأنه هو الذي يهدي من يشاء.

وأن تقتصر دعوة الرسول على البلاغ، فهذا ما تصوره آيات عديدة، بينما جردت آيات أخرى عديدة الرسول من أي سلطة خلاف التبليغ، فهو ليس مسيطرًا، ولا حفيظاً، ولا حتى وكيلاً عن الناس، والحكمة التي قد تدق على الناس في هذا أن الله تعالى يريد أن يكون الناس أحرارًا عندما يعتنقون الإسلام، وأن يأتي هذا الاعتناق دون أي عنصر من عناصر الضغط حتى لو كان مضمرًا كشدة

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم»، العدد (٢٢٦٣)، بتاريخ ٢٠١٠/٨/٢٤م.

الإلحاح، ومن هنا قال القرآن بصراحة ليس بعدها صراحة «وَقُلْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ» ففي هذه الحالة يتوفر الكمال للداعية وللمدعو إليه، وتصبح العملية عرض وقبول، فلا يريد الإسلام هجرة إليه يشوبها غرض، ولا يريد فردًا يدخله لقاء جاه أو مال أو سلطة .

إن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا خالصًا لوجهه .



[١٥]

«وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً»(*)

هذه هي الآية التي أضفت على الذين يقتلون في سبيل الله أكليل الشهادة، وضمنت لهم الحياة عند ربهم يرزقون، فرحين بما آتاهم الله من فضله، ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم «أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ».

القتال «كُرْهٌ» بتعبير القرآن، وأعتقد أنه ما من جريمة تقترف مثل الحروب التي هي طريق جماعي لإهدار الدم وقتل النفس التي حرم الله قتلها، لأن الإسلام جعل الحياة حق مقدس لكل إنسان.

هناك حالة واحدة فحسب يُقبل فيها القتال، بل إنه ينقلب من جريمة إلى فضيلة تلك هي عندما يُراد استخدام القوة العسكرية لقهر الإرادات، وتغيير العقائد، وتبديل المبادئ، لأن معنى هذا أن تكون الحياة ذلاً واستعبادًا وحرماناً للإنسان من أعظم ما أنعم الله عليه، وما به جعله إنساناً متميزًا على بقية الكائنات، ألا وهو التجريد من الضمير ومن الإرادة.

هنا يحل القتال، بل يصبح واجبًا لأنه في حقيقة الحال ليس قتالاً، ولكن دفاعًا .. دفاعًا عن إنسانية الإنسان .. دفاعًا عن حرية الاعتقاد.

بهذا القياس تصبح كل الحروب التي تحللها حكومات وتصدر بها قوانين وتشريعات ليست إلا ممارسة الجريمة على مستوى قومي.

وتصل بهذا، ويُعد جزءًا منه أن ترغب دولة في الاستحواز على الأرض، وما يعنيه هذا من إخضاع مصدر الثروة وموطن الإقامة، وما يحصل عليه الأفراد من غلتها ومعدنها كله للجيش المنتصر ولدولته،

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم»، العدد (٢٢٦٤)، بتاريخ ٢٥/٨/٢٠١٠م.

وليس لأصحاب الأرض وشعب هذه الأرض، فهذا أيضًا تجريد من المقوم المادي، وهو لا يقل عن التجريد من المقوم المعنوي الخاص بتغيير العقائد .

بهذا القياس تصبح كل الحروب ـ التي لا تكون دفاعًا عن العرض أو الأرض أو المبدأ أو الدين ـ جريمة نكراء، وممارسة للقتل بالجملة، بالألوف وبعشرات الألوف ويُعد كبار القادة والأباطرة أكابر مجرميها الذين يستحقون المحاكمة في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب النار .

وليس هذا بظلم لهم، لأنهم سودوا التاريخ بالدماء المهدرة، وزيفوه، وجعلوه أداة لاستعباد الإنسان وإخضاع إرادته، واستصفاء ثروته .

وليس هناك ما هو أسوأ من هذا .



[١٦]

«وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ»(*)

يُخاطب القرآن الكريم النساء والرجال، وبحكم السياق فإنه يفترض مجتمعًا يحقق قدرًا من الندية بين الرجال والنساء بحيث يستشرف كل واحد منهما ما خصه الله به من فضل، فالآية تجمع ما بين المساواة، وفي الوقت نفسه التميز الذي أراده الله عندما خلق الإنسان رجلاً وامرأة، ولم يجعله رجلاً دون امرأة، أو امرأة دون رجل.

وما تلقيه الآية في روعي هو أن الله تعالى خص كلا من الرجال والنساء بمزايا متفاوتة، ولكنها تتفق مع طبيعة كل من الرجال والنساء.

أعطى الرجال القوة العضلية والإرادة الواحدة ليشق طريقًا وسط صعوبات الحياة ومشاقها غير مثقل بشيء في تكوين جسده، وتكوين إرادته.

ولكن أعطى المرأة الجمال بدلاً من القوة، كما أنه جعلها من الزاوية البيولوجية مؤهلة لرسالة عظمى هي الأمومة، التي لولاها لما بقيت البشرية، ولما شبت الأجيال.

ولا يريد القرآن للرجل أن يتمنى ما كفله الله للمرأة، فيسعى ليصير جميلاً، كما أنه لا يريد للمرأة أن تتمنى ما أعطى الله الرجل من قوة وبأس وخشونة.

وفي الوقت نفسه فإنه جعل لكل واحد منهما اعتزازه الخاص الذي يؤمن أنه الأفضل فيعتز الرجل بالقيادة وتحمل مسئوليات العيش والكفاح في غمرات الدنيا للحصول عليه، بينما جعل الله

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم»، العدد (٢٢٦٥)، بتاريخ ٢٦/٨/٢٠١٠م.

المرأة السبيل لظهور الطفل الذي يمثل المستقبل ورعاية هذا الطفل منذ أن كان قطعة لحم لا يتكلم ولا يسير إلى طفل قوي يسعى و«يتنطط»، ثم إلى شاب، فأي ميزة مثل هذه، إن الله تعالى استحفظها على الجيل، ولولا رحمتها ومحبتها وعملها الدائب وتفانيها ونسيانها لنفسها لما شب الطفل ولما ظهر الجيل .

كل واحد إذن له اعتزازه الذي لا يمس اعتزاز الآخر لأن له طبيعة متميزة .

وعندما أوجد الله تعالى الإنسان رجلاً وامرأة، فإنه قدر لهما أن يتزوجا وعندما يتزوجا يتحقق الكمال وتكمل المزايا التي أنعم الله بها على كل واحد منهما بحيث تتحقق الحياة السعيدة .

ومن الواضح أن هذا هو الحكم العام الذي لا يخل به وجود استثناءات ، فقد توجد المرأة التي لديها قوة الرجل، وقد يوجد الرجل الذي لديه رخاوة المرأة، ويمكن أن توجد المرأة التي لديها ملكات عقلية خارقة ومواهب هندسية ورياضية، فهذه يكون مكانها «المعمل» أكثر من البيت، وقد توجد المرأة التي تضرب الرجل، وإن كان الظن أن الرجل هو الذي يضرب المرأة، فهذه كلها صنوف من الشذوذ الذي توجد ولكنها لا تؤثر على القاعدة .



[١٧]
«وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ»(*)

في آية ذات أهمية كبرى في مستهل سورة آل عمران عَرَّفنا الله على مضمون القرآن وأن فيه آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ، وحدد لنا الموقف منها، أما المحكمات فقد قال عنها «هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ»، ويكتفي بهذا كناية عن أنها أساس المحتوى القرآني، فإذا كان الأمر كذلك فلماذا جاء القرآن بمتشابهات، خاصة بعد أن ذكر أن «الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ» يتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله، وقطع بأنه لا يعلم تأويلها إلا الله وأن «الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ» يقولون «آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُوا الأَلْبَابِ».

لست أرى مبررًا موضوعيًا لذكر المتشابهات إلا أن اللغة تعجز عن تصوير عالم الغيب، ولا تستطيع أن تعبر عن ذات الله وطبيعته، فما اللغة إلا وسيلة ابتدعها الإنسان ليمكن له مخاطبة الآخرين، ومن ثم فهي تعجز عن تصوير ما يجاوز عالم الإنسان، وفي الوقت نفسه فقد كان لازمًا للقرآن أن يعرف الناس على شعاع من قدرة الله وعظمته، وأن ينفي عنه ما قد يتبادر في الذهن البشري من إثارة بشرية، ومن هنا جاءت المتشابهات، وهي الآيات التي تتكلم عن الله تعالى، وعن عالم الغيب بلغتنا دون أن يكون فيها شيء حقيقي مادي توحي به لغاتنا، ومن هنا كان موقف «وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُوا الأَلْبَابِ».

إن إعجاز الآية أن ما تنبأت به هو الذي حدث فعلاً.

وأن فريقان من الناس ترك الآيات المحكمات التي هي أم الكتاب وانحاز بكليته إلى المتشابهات، ووصف القرآن هؤلاء بأن

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم»، العدد (٢٢٦٦)، بتاريخ ٢٠١٠/٨/٢٧م.

في قلوبهم زيغ، وذكر القرآن ما يعللون به هذا «الزيغ» من المحكم إلى المتشابه بأنه «تأويله» في حين إنهم يريدون الفتنة.

لقد كان ذلك هو دأب أعداء الإسلام الأولين عندما ظهر، كما كان هو دأب فريق من الذين تركوا الطريق الواسع المستقيم إلى أزقة ملتوية تحوطها المرتفعات والمنخفضات وتنطلق منها روائح الماء الآسن وقد ظهر هؤلاء مع تفشي الملل والنحل في المجتمع الإسلامي في العهد العباسي مع المعتزلة أولاً ثم مع فئات عديدة أخرى ختمت بالمستشرقين في الغرب والذين اتبعوهم في الشرق الذين عكفوا على المتشابهات وجعلوا ذلك سبيلهم في الطعن على الإسلام، وإثارة «الفتنة» عند المحكمات، ونرى أن فيها الكفاية والمقنع، وإننا أمام المتشابهات نقول «آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا»، ونكتفي بما وقر في صدورنا من معنى لها دون أن نجعل ذلك محوراً لحديث أو قاعدة لإصدار أحكام.



[١٨]

«قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ»(*)

في آيات عديدة يدعو القرآن الكريم المسلمين للسير في الأرض لينظروا «كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ» (الروم : ٤٢)، ولكي يعرفوا «قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» (العنكبوت : ٢٠).

في الهدف الأول من هذا السير سيرى المسلمون آثار الشعوب والقبائل السابقة، وآثار الدول الغابرة وماتركوه من «جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ❖ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ❖ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ»، «فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ».

وهذا درس عملي وواقعي أكثر تأثيرًا ووقعًا من دراسات نظرية، وأشد دلالة على أن طموح بعض الدول تحقيق الخلود والبقاء أبد الدهر والسيطرة على العالم لا يمكن أن تتحقق، ليس فحسب لأن التطور يأبى هذا، ولكن أيضًا لأن قادة هذه الدول من الطغاة والمتجبرين لابد أن تحيق بهم نتائج طغيانهم ويقضى عليهم.

والهدف الثاني من السير في الأرض أن ينظروا كيف خلق الله تعالى هذا الكون وهذه الأرض، وكيف خلق فيها البحار والأنهار وأنبت فيها البذور والأشجار، وأوجد فيها السهول والجبال، وأجرى الرياح، وأسقط الأمطار، إن الذي خلق هذا أول مرة وقبل أن يكون شيئاً، لا يعجزه أن يخلق عالمًا آخر وحياة أخرى أعظم من هذه الحياة.

والهدفان يلتقيان في أنهما يثيرا الفكر ويعملا العقل، وهما ينمان عن الطبيعة المتفتحة للإسلام، الطبيعة «العالمية» سواء كان

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم»، العدد (٢٢٦٧)، بتاريخ ٢٠١٠/٨/٢٨م.

ذلك بالنسبة للكون كله، أو كان بالنسبة للمجتمع الإنساني والقوانين التي تحكم بوجوده وتقضي بفنائه، وسواء كان في نفس الإنسان أو في قوى الطبيعة ازدهاره وتقدمه، ثم تحلله وتدهوره .

يا لها من دعوة للانطلاق، ومن محاربة للانغلاق أو الانكفاء على النفس، إنها اعتراف بالتطور والحياة المتجددة، واستبعاد للفناء والعدم، إنها الحياة دنيا وآخرة .

إن السير في الأرض ليس إلا الصورة المثمرة للسياحة التي يتجهم لها بعض دعاة الانغلاق، إنها سبيل للتعرف على الحكمة التي قد تكون في أقصى البلاد، إنها دعوة للتعايش، وصورة من صور «العولمة» الرشيدة، وهي تتلاقى وتتفق مع دعوة القرآن «اسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ»، «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ» .



[١٩]
«وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا»(*)

هذه جملة من ثلاث كلمات، وهي جزء من الآية ٨٣ من سورة البقرة التي أدب الله تعالى بني إسرائيل بآداب التعامل من بر بالوالدين وإحسان لذوي القربى واليتامى والمساكين .. إلخ، وإنما خصصنا هذه الجملة بالحديث لأنها تمثل لنا إعجاز القرآن وكيف أنه يجمل في ثلاث كلمات قاعدة عظمى وعامة لكل آداب السلوك في القول، فهي توجه القول للناس، أي الإنسان صغيرًا أو كبيرًا، رجلاً أو امرأة، أسود أو أبيض، فكلمة الناس هنا مثل كلمة «بني آدم» تضم الجنس البشري بأسره، وكيف أبدع القرآن الصياغة في كلمة «حُسْنًا» فهذه كلمة من الإعجاز اللغوي القرآني، أما إعجازها المعنوي فهو لا يحد لأنها توصي بمبدأ لو اتبع لقامت العلاقات بين الناس على صفاء، حتى لو اختلفت المصالح، فإن التلطف في الحديث يجعل الإنسان يقبل المعارضة أو يتهيأ للنقاش.

والآية تتفق مع آيات عديدة أوردها القرآن عن المعاملة الحسنة مثل «وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ»، ومثل «ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ».

وقد يوحى سياق الآية أن تطبيقها أمر سهل، ولكن الواقع خلاف ذلك، فيتطلب أن يعمد كل ذي سلطان في اللواذ بالسلطة ومفرداتها من الأمر والنهي الذي قد يصل إلى السباب والشتام، يبدأ ذلك من الوزير حتى الخفير الذي لا يجد سلطة إلا على امرأته وكأنهم جميعًا يطبقون قول المتنبي :

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم»، العدد (٢٢٦٨)، بتاريخ ٢٩/٨/٢٠١٠م.

من أطاق التماس شيء غلابًا   واغتصابًا لم يلتمسه سؤالا

فليس هناك السؤال .. ولكن الطلب .

إننا عندما نقول من قلوبنا وبابتسامة «صباح الخير»، فإن هذا يفتح لنا القلوب قبل الأبواب .

فهل هناك من صفقة أفضل من هذا .



[٢٠]

«إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ»(*)

يسن القرآن لأنبيائه مبدءًا هو أن لا يطلبوا أجرًا لقاء دعوتهم، وتكرر ذلك بشكل ملفت، وانظر إن شئت :

- «قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ» (الأنعام : ٩٠).
- «وَيَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ» (٢٩).
- «يَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلا تَعْقِلُونَ» (هود : ٥١).
- «فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ» (يونس : ٧٢).
- «وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ» الشعراء : ١٠٩).
- تكررت أربع مرات أخرى في سورة الشعراء الآيات ١٢٧، ١٤٥، ١٦٤، ١٨٠.
- «قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ» (ص : ٨٦).

معلوم أن الأنبياء جميعًا كانوا قبل أن يكلفوا بالرسالة يعملون فيما يعمل الناس من مهن، ولكن لم يحدث أن واصل أحد منهم حرفته بعد الرسالة، فالرسالة تتطلب أن يُنذر حياته كلها لها، ولما كانت من الله، فإن الله تعالى هو الذي يأجره.

وكيف يحدث هذا ؟

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم»، العدد (٢٢٦٩)، بتاريخ ٢٠١٠/٨/٣٠م.

نحن نعلم أن السيدة مريم كانت تجد عندها رزقاً، فلما سئلت عنه قالت «هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ»، وليس شرطاً أن يتم هذا للأنبياء، ولكن الحقيقة أن الله تعالى لا يختار أنبياء بطاناً، وإنما من الذين يرون «حسب امرئ لقيمات يقمن صلبه»، وقد تكون تمرات وشيء من لبن ولن يعجزهم هذا، على أن الله تعالى قد يخصص لهم شيئاً فيما يضع من سياسات مالية .

المهم أن لا يأخذ لقاء الدعوة أجرًا .

وفي هذا حكمة عظيمة .. تلك هي أنه ما إن يدخل المال شيئاً حتى يفسده، فإذا دخل السياسة أفسدها، وإذا دخل الدين أفسده أيضًا .

الدعوة لله يجب أن تكون مجردة لله .

ونحن نرى اليوم دعاة مترفين يحملون سبحة تكفي لبناء عمارة، ويحصلون على مئات الألوف، كما نعلم أن كل سؤال إنما يحسب بالدقائق على السائل لحساب البرنامج، وهذه أعمال تجعل من الدعوة تجارة بحيث يختلطا، فلا نعلم أين الدين وأين التجارة .

فإذا كانوا يدعون إلى سُنة الرسول، فالرسول منهم براء .



[٢١]

«مَا أرِيكُمْ إلاَّ مَا أرَى»(*)

هذه كلمة كل الحكام والملوك والأباطرة لشعوبهم، أنه لا يريهم إلا ما يرى، وإلا ما يعتقد أنه سبيل الرشاد، ويحسبون بذلك أنهم قد أعزروا إليهم، والقرآن الكريم يرفض هذا المنطق، لأنه يجعل الأمر إلى الحاكم، ولأنه يجعل الحاكم إلهًا يحرم على الناس ويحلل لهم ، وهذا ما لا يجوز.

عند الحاكم تتلاقى كل الإغراءات ، إغراءات المال .. إغراءات الجنس .. إغراءات الأمر والنهي والسيطرة والهيمنة ، إن قليلاً من أحد هذه الإغراءات يفسد الإنسان ، فما بالك إذا كانت كلها تحت خدمة الحاكم وطوعه ، وأي سبيل للرشاد يمكن أن يصل إليه .

حتى لو كان الحاكم فيلسوفاً، فلا جدال أنه سيفسد، وقد كان المأمون هو أقرب الخلفاء العباسيين إلى الفلسفة، هو الذي أمر بتعذيب أحمد بن حنبل، وكان الإمبراطور ماركس أورليوس فيلسوفاً وله كتاب مشهور عن خواطره، ومع هذا قاد الجيوش لاستئصال المسيحية، فالسلطة تفسد الفلاسفة، بل تفسد الملائكة، وقد كان الشيطان ملاكاً، ولكنه عندما قال «أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ» تحول من ملاك إلى شيطان .

لابد للحاكم أن يحكم بمقتضى دستور يتعهد بالالتزام به ويحترمه، وعندما وُلي أبو بكر قال إنه يحكمهم بطاعة الله، فإذا عصى الله فلا طاعة له، وقرر المبدأ الإسلامي الجذري «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق» .

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم» ، العدد (٢٢٧٠) ، بتاريخ ٢٠١٠/٨/٣١م .

وأراد القرآن للذين لا يستطيعون مقاومة الحكم الظالم إن يهاجروا إلى أرض أخرى حتى لا يعيشوا تحت حكم الظلم وإرادة الفرد «أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللّٰهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا»، فضلاً عن أنه لا يمكن الحياة في ظل حاكم بأمره مع بقاء «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»، وهي الفريضة المقدسة التي توجب مقاومة كل منكر والظلم هو أشد المنكرات نكرًا .

فعبثاً يُقسم لنا الحكام، ويدعون أنهم إنما يريدون المصلحة والخير، وعلينا أن نقول لهم «عفوا لا يمكن أن نصدقكم ونكذب سوابق التاريخ وطبيعة الأشياء»، وخير لكم من هذا أن تحكموا بقانون يرتضيه الشعب .



[٢٢]

«أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ»(*)

إنهم لا يأمرون الناس بالبر، وينسون أنفسهم فحسب، بل هم يفعلون ذلك وهم يتلون الكتاب، وهذا بالطبع ما يضاعف المفارقة، ولكنه عمليًا لا يؤثر كثيرًا لأنها تلاوة على طرف اللسان، فلا قيمة لها، ولو كانت تلاوة واعية لما وقعوا في هذا المأخذ الكبير، لأن المعنى هو أن يأخذ كل فرد أمر نفسه أولاً قبل أن يتصدى للناس، إذا كان له هذا بنوع من حقوق الولاية، كأن يكون أبًا على أبناء قصر - فحتى في هذه الحالة - فإنها لا تعفيه من المؤاخذة، بل هي تضاعفها لأن المفروض أن يكون بحق الولاية «قدوة»، وقد كان قدوة بالأمر الواقع، ولكن قدوة سيئة .

على كل واحد أن يُحاسب نفسه، وأن يتابع تصرفاته وسلوكه ودوافعه وبواعثه على العمل، وهو أدرى بنفسه، ويصعب أن يخادع نفسه إن استطاع أن يخادع الناس ولو أنه فعل هذا وقاس أعماله بمقياس الواجب الإسلامي لوجد تقصيرًا، إن لم يكن مخالفة، ولانتهى إلى أن عليه أن يفعل هذا قبل أن يلتفت إلى الآخرين، ولو عُني به لما وجد وقتاً للآخرين .

في أحد المناسبات قال الرسول لمعاذ : «يا معاذ أمسك عليك لسانك، وليسعك بيتك، وابك على خطيئتك»، هذا القول الصادر من الرسول الكريم والموجه لمعاذ بن جبل الذي يُعد من خيرة الصحابة يؤكد لنا أن فينا تقصيرًا، إن لم يكن مخالفة، وأن الإسلام وإن لم يعترف بخطيئة أصلية، فإنه جعل الحياة جهادًا ما بين الخير والشر .. الهدى والضلال، وليس هو جهاد معركة تدوم ساعة ثم تنتهي بالانتصار أو الاستشهاد، إنه جهاد غوايات الحياة، واستسلامات

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم» ، العدد (٢٢٧١) ، بتاريخ ٢٠١٠/٩/١م .

الضعف البشري، إنه الجهاد كل يوم وكل ساعة، فكيف يجد من يقوم بهذا وقتاً ليعيب على غيره.

وفي الأصل، أن لا يتصدى للناس إلا لدفع أذى، أما أن يحاول وعظهم وإرشادهم، فإنه نوع من الفضول، وله دلالة نفسية سيئة، فليقف على نفسه خيرًا له.



[٢٣]
«بَشَـرٌ مِثْـلُكُمْ»(*)

في آيات عديدة يؤكد القرآن أن الرسول بشر، ثم لا يكتفي بهذا حتى يقول «مِثْلُكُمْ»، وبهذا أمر الله الرسول أن يعرف نفسه «قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا.إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ»، وهي آية جاءت في سورة الكهف، وتكررت في سورة فصلت، كما أنه عندما طالبه المشركون بالمعجزات بأن تكون له جنة، أو يأت بكتاب من الله، فإنه أمر بأن يقول «سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَرًا رَسُولاً».

بشرية الرسول أمر مقرر ومؤكد في الإسلام ، والإسلام يريد بهذا أمرين، أولهما : أن ينفي أي قداسة حتى بالنسبة للرسول، لأن الرسول ليس إلا بشرًا اصطفاه الله دون الناس، وهذا وإن كان فضلاً كبيرًا ومنة عظمى، فإنه لا يخرجه من عالم البشر فهو يأكل ويشرب ويقوم وينام ويقرب النساء ويحب الطيبات ويكره الخبائث، وهي كلها أمور تنفي أن يكون للرسول قداسة استثنائية دون الناس، خاصة بعد أن أكد القرآن «مِثْلُكُمْ» التي تنطبق ليس فحسب على شخصية الرسول، بل وأيضًا على ما يصطحب به مما يمكن أن يميزه دون الناس ولا يجعله مثلهم كتخصيص حرس، والعيش في قصر، ولبس الذهب والفضة .. إلخ، وأداء تحية خاصة به يمكن أن تصل إلى السجود .

وأما الأمر الثاني : فهو أن هذا النبي الكريم «رسول» ميزته وخصيصته التي تملأ حياته، أنه رسول يحمل رسالة الله إلى الناس، ويأمر الناس بالالتزام بها ، ويكون هو أول الملتزمين، ولا يكون من حقه أن يغير من هذه الرسالة حرفاً ، أو يزيد أو ينقص، لأنه ليس له

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم» ، العدد (٢٢٧٢) ، بتاريخ ٢/٩/٢٠١٠م .

من الأمر شيء في هذا ، إنما هو مبلغ .. بشير .. نذير .. وهذا درس هام في دروس القيادة، وفي الفصل ما بين الذاتي والموضوعي، وإبعاد الذات عن الموضوع والحرص على سلامة الرسالة ، والرسالة في الدين مثل الدستور في السياسة، وكما أن مهمة الحاكم الأمين هي الحرص على الدستور وتطبيقه والالتزام به، فأحرى أن يكون الأمر كذلك بالنسبة للأنبياء الذي تفضل رسالتهم، أي دستور، لأنها جاءت من الله .

ولا يمس هذا أن يكون الرسول متميزًا في خلائقه، لأن الله تعالى إنما يصطفي الأكثر قربًا إلى الكمال، لهذا أمر القرآن المؤمنين بألا يرفعوا أصواتهم فوق صوته، وأن لا يخالفوا أمره ، فما أرسل الله الرسل ليخالفوا ، ولكن ليطاعوا .

وهذه كلها دروس ثمينة في فن قيادة الجماهير أو بالتعبير الديني هداية الناس .



[٢٤]
«وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً»(*)

يستخدم القرآن الكريم تعبير «البـــلاء» ومشتقاته بمعنى الاختبار والموقف من الخير والشر، بهذا المعنى يمكن فهم كلمة «الخير» هنا، على أن هناك تعريفاً آخر ذلك أن القرآن يعني بكلمة الخير في مواضع معينة المال والثروة كما في قوله «وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ»، فلم يعرف عن الإنسان النمطي أنه يحب الخير حبًا جماً شديدًا، وأعتقد أن المعنى في الآية التي نحن بصددها هو «الثراء»، وأن المعنى بالشر الفاقة.

فمن البلاء أن لا يجد الرجل الفقير «ثلاجة» ستة أقدام يحفظ بها طعامه حتى لا يحمض ويشرب منها قدحًا من الماء البارد عندما يشتد الحر يكون هذا من البلاء.

ومن البلاء أن يكون لفرد ثلاجة ٢٤ قدمًا تمتلأ بأنواع مختلفة من الحلوى والشيكولاته والمشروبات على أنواعها والفواكه على اختلافها، إنه بلاء حقيقي فإذا سمح صاحبها لنفسه بالاستمتاع بها فسيصاب بالبطنة، وكما أن هناك أمراضًا تنشأ عن الجوع، فهناك أمراض تنشأ عن الإفراط في الأكل، وعندما يريد صاحب هذه الثلاجة أن يقاوم شهيته المنفتحة، فهذا بلاء، وإذا استسلم لها، فهذا بلاء آخر.

من هنا نعرف أن البلاء لا يقتصر ـ كما يتصور الفقراء ـ على الفاقة وضرورياتها المؤلمة، ولكنه أيضًا يمتد إلى الثروة والترف والاستمتاع.

وإنما يُعد هذا وذاك نوعًا من البلاء، لأنه قصر في ناحية، وبالغ في ناحية أخرى، فابتعدا عن «القصد» أو «الوسط» أو «الاعتدال» الذي يُعد الموقف الأمثل.

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم»، العدد (٢٢٧٣)، بتاريخ ٢٠١٠/٩/٣م.

المشكلة أن لا أحد يريد هذا الوسط، فالفقير يسعى لأن يكون غنيًا، والغني يسعى لأن يكون أكثر غنى، ولا يعلمون أن هذا يعرضهما للبلاء الشديد، ولو أنهما قنعا بالوسط، لما أصبح أسيرًا في قبضة الفاقة المذلة، أو غريقاً في بحر اللذات، ولاستطاع - وقد خلص من البلاء - أن يوجه جهده للخير، والآخرة، وللوطن، وللناس.



[٢٥]
«إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا»(*)

في لحظة نادرة لا تتكرر اعترفت ملكة سبأ القديرة بما يفعله الملوك إذا دخلوا قرية «إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ» .

كانت سبأ تعبد الشمس مع قومها، ولكنها كانت ملكة شجاعة، وأعظم الشجاعة المجاهرة بالحق، فقالت قولتها تلك مع أنها ملكة يسري عليها ما يسري على الملوك، وكافأها القرآن على شجاعتها، فالتمس لها عذرًا «وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ»، وإنما قال القرآن هذا لأنها ستؤمن بالله عندما تتعرف عليه .

ثمة مفارقة توضح لنا مدى التعقيد الاجتماعي الذي يمكن أن يذهب من النقيض إلى النقيض .

فهنا ملكة تقول «إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ» .

وفي اليهود قوم يريدون ـ بجدع الأنف ـ أن يكون لهم ملك .

وفي عهد أفضل هؤلاء القضاة وهو صموئيل أصر اليهود أن يكون لهم ملك .

وفي سفر القضاة عندما ضاق صموئيل بمطلبهم هذا ابتهل إلى الله أن يهديه، أجابه الله «اسمع لكلام الشعب في جميع ما يقولون لك، لأنهم لم يرفضوك أنت، بل إياي رفضوا حتى لا أملك عليهم، ولكن أشهدهم وأخبرهم بوسائل الملك الذي يملك عليهم حتى إذا ما أثقل عليهم لا يلوموا إلا أنفسهم» .

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم»، العدد (٢٢٧٤)، بتاريخ ٢٠١٠/٩/٤م .

فجمعهم صموئيل وقال لهم هذا هو ما سيفعله الملك إذا حكمكم، سيأخذ أبناءكم ليستعبدهم في أعماله، وليسعون بين يدي عرباته، وسيعين بعضهم قادة ليكونوا ضباطاً في جيشه، وآخرين ليكدحوا في حقوله ومزارعه، وآخرين لإعداد عرباته وأسلحته، وسيأخذ بناتكم ليكن وصائف وخادمات وخبازات وطباخات، وسيأخذ أفضل حقولكم وأشجار الزيتون والأعناب، وسيأخذ العشر من الحبوب ليعطيها لأتباعه وسيأخذ أفضل ماشيتكم، وسيثقل كواهلكم بالضرائب وأنتم تكونون عبيداً له.

فأبى الشعب أن يسمع لهذا التحذير، وقالوا بإلحاح كلا، بل يملك علينا ملك كسائر الأمم، يقضي بيننا، ويخرج أمامنا، ويحارب حروبنا.

فلما رأى إصرارهم اختار لهم شاول ملكاً.



[٢٦]
«مَا هِيَ إلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنيَا
نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إلاَّ الدَّهْرُ»(*)

هذه المقولة التي رددها المشركون قديمًا وهي في العصر الحديث ما يؤمن به عامة الناس وخاصتهم في المجتمعات الحديثة - في أوروبا وأمريكا - وهم إما يصدعون بها جهرة، أو أنها ما تكن في نفوسهم التي استبعدت بصفة عامة عالم الغيبيات من حياتها، وقد كان ذلك سببًا لأن يؤلف جمال الدين الأفغاني رسالته ضد «الدهريين»، وبدأها «نسمع صيحة تتردد نيتشر .. نيتشر»، أي الطبيعة .. الطبيعة، بينما اعتبرها بعض المفكرين جزءًا من «العلمانية» وهو الاتجاه الذي جعل الأستاذ عادل حسين يطلق على العلمانية تعبير «الدنيوية».

لقد قلنا في إحدى المناسبات أن الإيمان باليوم الآخر هو أعصى ما في الأديان استيعابًا لدى الأوروبيين، فهم قد يؤمنون - بطريقة ما - بوجود الله ولكنهم لا يمكن أن يسيغوا فكرة بعث الأجساد من القبـور، وما يتلو ذلك من حساب أو عقاب في جنة أو نار.

وقد وقف فلاسفتهم إزاء ذلك فلم يفندوا أو يؤيدوا لأن علمهم منعهم من التفنيد، فليس في العلم ما يرفض وجود عالم آخر، وفي الوقت نفسه جعلهم الهوى يرفضون الإيمان، وفي النهاية وجدوا في الطبيعة بدلاً، فعادوا إليها، وظلوا عليها.

ولم يكن هذا موقفنا قدر ما كان فرارًا من المشكلة، لأن الطبيعة إذا لم يكن لها عقل أو إرادة، فكيف يتسنى لها أن تبدع هذا الإبداع في إحكام المخلوقات التي تعمل وتسير بكل دقة ؟ وإذا كان لها عقل فإن الطبيعة تصبح تسمية فجة للإله.

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم»، العدد (٢٢٧٥)، بتاريخ ٢٠١٠/٩/٥م.

ولو أن مفكريهم ساروا إلى النهاية المنطقية لوجدوا أن كمال العدالة، وهو ما يقتضيه الكمال الفلسفي، يوجب إقامة محكمة تستدرك نقص العدالة في الحياة الدنيا لندرة الموارد وفساد النظم، وتتيح للملايين المجهولة التي أمضت حياتها في الكدح والعناء، والتي تحقق بفضل عرقها قيام المؤسسات دون أن تذوق ساعة سعادة، أن تكافأ بجنة عرضها السموات والأرض، وفيها ما لا تتصور، لأن قدرة الله لا تحد، وفي الوقت نفسه تحكم على الطغاة والحكام الذين استبدوا بشعوبهم وأثقلوها بالضرائب وعذبوها بالقيود، ثم ماتوا فشيعت جنازاتهم في احتفالات مدوية وأفلتوا من العقاب، إن من تمام العدالة أن يعاقبوا في جحيم النار.

ولكن هذا كان عسيرًا حتى على الفلاسفة، فما بالك بعامة الناس؟ وهكذا ظل الجميع يرددون «مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ».



[٢٧]

«فَلا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ»(*)

كان الرسول في معاهدة الحديبية قد عاهد الكفار على أن من هاجر إليه منهم يعيده إليهم وقبل أن يجف القلم، جاء أحدهم، فقال ممثل قريش هذا أول العهد، فقال الرجل أتسلمونني إلى الكفار، فقال الرسول إننا قد عهدنا عهدًا وعلينا الوفاء وسيجعل الله لك فرجًا، وبعد أن عاد الرسول إلى المدينة هاجرت إحدى النساء المؤمنات إليه، فذهب زوجها إلى المدينة يطلبها من الرسول وفاءً للعهد، فرفض الرسول لأن العهد كان للرجال المحاربين وليس للنساء العزل، ولأنه قد نزل في ذلك قرآن صريح يوجب امتحانهن فإذا اتضح له صدق إيمانهن أبقاهن في المدينة ورفض إرجاعهن.

نقول هذا لأن الأنباء وافتنا بأن بعضهم قد أفتى بجواز تسليم السيدة كاميليا زوجة أحد الكهنة للكنيسة بعد إسلامها على أساس عهد الحديبية، ورمى الذين أنكروا عليه بالجهل (صوت الأمة ٢٥ رمضان ٢٠١٠/٩/٤م) وبأن عليهم أن يدرسوا الموقف وفي أي مكان وينظروا إلى الواقع المحيط، فيه حاجة اسمها سياسة ومواءمة.

نقول إن من الجميل أن يوجه المفتي نظر الآخرين إلى المواءمة، وأن يلحظ ما ذكره ابن القيم من قبل الفتوى باختلاف الأمكنة والأزمنة، ولكن هذا لا ينطبق على حالتنا هذه لأن هناك نصًا صريحًا من القرآن يقضي بعدم إرجاعهن «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ»، ولأن المعنى بعهد الحديبية هم الرجال المحاربون، وليس النساء المستسلمات، ولأن الآيات القرآنية تطلق حرية الاعتقاد ولا

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم»، العدد (٢٢٧٦)، بتاريخ ٢٠١٠/٩/٦م.

تضع عليها قيدًا أو شرطاً مثل «وَقُلْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ»، و «لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ»، وهذه آيات صريحة تستبعد أي ضغط أو إكراه أو شرط يفسد هذه الحرية، وأخيرًا فإن الإسلام سبق الإعلان العالمي لحقوق الإنسان عندما أعلن في المادة ١٦ حرية المعتقد، ذلك أن حرية الاعتقاد قيمة عظمى وجزءًا لا يتجزأ من حرية الفكر التي هي أساس تقدم المجتمع البشري.

ولا يجوز لأي اعتبارات من مواءمة أو سياسة أن تحيف عليها وهل كلام الشيخ إلا مثل ما تورده بعض مواد القانون التي تبيح أمرًا ثم تستدرك بشتى صور التحيف، بل هو أسوأ لأنه ينص صراحة بتسليمها للكنيسة، الأمر الذي يعني إجبارها على المسيحية، دع عنك أن وجود هيئة لها حق التحكم في الأفراد أمر يفترض أن لا توجد أصلاً، وأنه يهدد بوجود دولة داخل الدولة.



[٢٨]

«قُلْ لا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ»(*)

يعرض القرآن الكريم هنا مبدءًا من المبادئ المؤكدة والتي ذكرها بصيغ مختلفة ومتقاربة حتى يكون مضمونها شاملاً مثل «تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ» (البقرة : ١٣٤)، التي كررها في الآية ١٤١ من سورة البقرة، كما يكرر المعنى بصورة فردية «وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى»، «وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ» (فاطر : ١٨)، و«وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ» (العنكبوت : ١٢).

وقد جاء التعبير هنا صريحًا غاية في الصراحة فافترض أيها المخالف أننا نعمل الإجرام، فإن كان الأمر كذلك فلست مسئولاً أمام الله عن إجرامنا.

وفيما يبدو، كان في مجتمع المدينة عزوف عن «السؤال» بصورة عامة، وسواء كان السؤال للتعرف على حكم «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ» (المائدة : ١٠١)، أو لطلب شيء، وقد عاهد الرسول فكان في العهد «وأن لا تسألوا الناس شيئاً»، فكان الرجل إذا سقط سوطه من يده وهو راكب ناقته فإنه ينزل ليأخذه ويرفض أن يسأل أحدًا أن يناوله.

وهذا جانب من أدب رفيع، وهو يلزم النفس الكتمان ويبعدها عن الثرثرة وكثرة الحديث وإضاعة الوقت في قيل وقال، وهو

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم»، العدد (٢٢٧٧)، بتاريخ ٢٠١٠/٩/٧م.

بالطبع يحرم كل صور الوشاية والنميمة، وهي أمور قد تثقل على الناس أو لا تكون محل عنايتهم، ومع هذا فما أحوجنا إليها في عالم الفضول والإشاعة التي هي مادة الحديث عند بعض الناس، كما هي مادة صفحات بأسرها من الصحف والمجلات، وما أبعدها عما يعمد إليه بعضهم عندما يسأل الآخر عن مورده .. وأولاده .. وسكنه .. وعمله .. وفيم يقضي وقته .. أو كيف ينفق ماله ، دون أن يلحظ ما في ذلك من إحراج، ومن إضاعة وقت قد يكون رخيصًا عند صاحبه ولكنه غالي عند من يخاطبه .

كانت نصيحة الرسول لبعض أصحابه «امسك عليك لسانك» ولما عجب الصحابة، قال الرسول «وهل يكف الناس في النار إلا حصائد ألسنتهم» .

ومن مادة «السؤال» جاءت المسئولية، وجاءت الآية «إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً» .



[٢٩]

«وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ» (*)

في سورة تنبض بالعاطفة يضفي القرآن على الرسول الكريم بعض آلاء الله تعالى ويواسيه مواساة رقيقة ويذكره بأنه وضع عنه ما يثقل على الداعية حتى ينقض الظهر ويمن عليه «وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ»، وأي كرامة ورفعة وخلود مثل أن يتردد اسمه خمس مرات على الأقل في كل أذان وفي كل دول العالم، بعد شهادة أن لا إله إلى الله، ويبشره أن بعد العسر يسرًا، فلا يثنيه شيء عن ذكر الله أن يمضي قدمًا في دعوته.

فهل يمكن لأي إمبراطور روماني أو شاه إيراني أو ملك مصري أن يذكر اسمه كل يوم خمس مرات على الأقل في كل دول الدنيا وبمختلف لغاتها، وأن يظل هذا دون صدور أوامر أو إلزام قانون، ولا يتغير بتغير السياسات.

هذه السورة الوجيزة، ومثلها سورة الضحى وفيها يذكر الله تعالى الرسول أنه كان يَتِيمًا فَآوَى .. وَضَالاً فَهَدَى .. وَعَائِلاً فَأَغْنَى، وما أعظم « مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ❖ وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنْ الأُولَى ❖ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى»، هي أثمن وأعظم ما يقلد إنسان من كرم ورعاية والسورتان صيغتا في عبارات آخاذة.

قالت إحدى السيدات التي كانت من أغنى الأسر اليهودية في بريطانيا وأحبت لاعب هوكي باكستاني فأسلمت وتزوجته، إنها بكت عندما قرأت ترجمة سورة الضحى، فماذا كانت تفعل لو قرأت الأصل.

إن هذه السور تفهم أفضل ما تفهم عندما يقرأها القارئ دون أن يعود إلى أحد التفاسير التي تفسد عليه روعتها وأصالتها بما تلوثه

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم»، العدد (٢٢٧٨)، بتاريخ ٢٠١٠/٩/٨م.

من إدعاءات، بل حتى لو لم تكن تلك اللوثات، فإن أي محاولة لتفسيرها لابد أن تفقدها تماسكها وسياقها وهارمونيتها الموسيقية العاطفية، من أجل ذلك قال الله «وَرَتِّلْ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً»، وفي كل مرة يزداد أثر هذه السورة وتتغلغل معانيها ويستشعر المسلمون الشكر لله على ما آفاء على رسوله، وغبطة الرسول على المقام المحمود الذي ظفر به.



[٣٠]

« الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمْ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ»(*)

كانت قضية الخير والشر من القضايا التي حيرت الفكر البشري من أقدم العصور حتى لقد تصور البعض وجود إلهين : إلـه للخير .. وإلـه للشر، تسليمًا منهم بوجود الشر وجهلاً لمبرر هذا الوجود، إلا أن يكون إلهًا .

الأمر أهون من ذلك، فقد كان لابد من وجود الشر ليظهر الخير، لابد من وجود الشيطان ليظهر الملاك، وقد تنبه إلى ذلك المتنبي عندما قال في «فلتة» عبقرية «وبضدها تتبين الأشياء»، فالأسود لا يظهر إلا بالأبيض، والليل لابد أن يعقبه النهار، ولا يعرف الطويل إلا بوجود القصير .. إلخ .

ولكن يبدو أن الجماهير لا تقنع بهذ المنطق الجدلي، وهي تريد للشر كياناً ذاتيًا مستقلاً، ولكي يحقق لهم الله هذا، قدم «الشيطان» الذي يتبلور فيه الشر .

والقرآن الكريم في كل أمر من أمور الغيب يقدم صورة مجازية ليمكن للعقل البشري ـ عقل الكرة الأرضية ـ أن يستوعب كيانات وكواكب أكبر من الأرض ولا حد لها، فالشيطان أولاً كان ملكاً من الملائكة وتمرد على الإرادة الإلهية عندما أمر الملائكة بالسجود لآدم، وأبى متذرعًا بأنه أفضل منه، «قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ»، وعلى هذا فنحن لا نستطيع أن نقبض بأيدينا على الشيطان سواء في حالته الملائكية الأولى ولا في الحالة التي جعلته «الشيطان» عندما تمرد على الإرادة الإلهية وعندما تملكته الأثرة والأنانية والظن أنه يعلم كل شيء وهذه هي مداخل

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم» ، العدد (٢٢٧٩) ، بتاريخ ٢٠١٠/٩/٩م .

الانحراف الذي يؤدي إلى الضلال، «قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ❖ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ» حتى ينتهي النهاية التي أرادها أن يحتنك ذرية بني آدم، وأن يجلب عليهم بخيله وَرَجِلِهِ وأن يعدهم، وأن يشاركهم في الأموال والأولاد، باختصار لا يدع سبيلاً للغواية إلا سلكها، وقد أمهله الله إلى يوم القيامة، وهو ما يتفق مع المجتمع البشري كما يتفق مع ما أراده الله تعالى من محاسبة في الدنيا ومحاسبة في الآخرة.

قضية وجود الشيطان، أو لنقل الشر قضية محسومة بالصورة التي عرضناها، والقضية هي ليست في وجود الشيطان وغوايته التي لا حد لها، وبقاء ذلك إلى يوم القيامة، ولكن القضية التي أكدها القرآن مرارًا وتكرارًا، أن الشيطان على هذه القوة الفائقة لا سلطان له على المؤمنين، لأن الإيمان يعطيهم قدرًا من الحصانة ضد إغوائه، ولكن الشيطان لا يعدم فرائسه ممن يهن فيهم الإيمان وتعظم الشهوة.



المجموعة الثالثة

إلهامات قرآنيـة

نشرت بجريـدة «المصري اليوم»

رمضـان سنة ١٤٣٢هـ

أغسطس سنة ٢٠١١م

[١]
«الْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ»(*)

في كثير من الحالات - إن لم يكن في معظم الحالات - تستأثر الشهوات بنفس صاحبها، فهو لا يحبها حبًا مقتصدًا بحكم الطبع البشري، ولكنه يهيم بها ويسير في آثارها ويسلك مسالكها حتى يتراكم لديه الشيء الكثير وكلما زادت ثروته كلما تفتحت شهيته للمزيد حتى لقد تبلغ أقصاها في آخر دقيقة من حياته قبل الموت .

وقد عبر القرآن الكريم عن هذا أجمل تعبير فقال «زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ» .

فتأمل تعبير القرآن «الْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ» ، وكيف أنها تبلغ من النفس ما لا يبلغه تعبير آخر ، وقد يتصور أحد أن القرآن عندما استخدم تعبير «وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنْ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ» ، خاصة إذا كان صاحبنا من بيئة فقيرة لا يمكن أن يذهب خيالها إلى الْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ ، ولكن الحقيقة غير ذلك ، فقد تجاوز الثروة المليون إلى المليار والمليار إلى الترليون حتى تبلغ الْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ ، بل قرأنا عن عبد الرحمن بن عوف الذي ترك ذهبًا يكسر بالفؤوس .

لماذا هذا كله، والحياة محدودة، ولا يستطيع واحد أن يكون له أفواه متعددة يأكل منها ويلتذ بطعمها، ولا أجسام متعددة يضع عليها ملابسه وزينته .

ورحم الله المتنبي :

يموت راعي الضأن في جهله ... ميتة جالينوس في طبِّه
وربما زاد على عمره ... وزاد في الأمن على سِرْبه

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم» ، العدد (٢٦٠٥) ، بتاريخ ٢٠١١/٨/١م .

والإنسان لا يمكن أن يبلغ هذا المبلغ من الثروة إلا إذا أعطاها عمره وأفنى في سبيلها حياته، فأي فائدة ترجى بعد أن أفنى حياته في سبيلها، وجعل من نفسه الوسيلة إليها.

وإذا كان الولع بالمال قد جعل الناس يختصرون من وقت أكلهم فلجأ إلى «ساندويتش» يأكله واقفاً عن أن يجلس إلى مائدة حافلة، لأن الأول سيوفر له وقتاً يزيد من ثروته، فما فائدة ثروته إذا كان قد فقد نفسه، وما فائدة التكاثر وقد دنى الأجل.

أسئلة معقولة .. ولكنها لا تقف أمام إغـــراء المال، وإغراء الثروة، وإغراء «الْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنْ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ».

كان لابد للقرآن أن يستخدم تعبير «الْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ» لأنه كان يستشف في المستقبل البعيد عهداً تفوق ثروات بعض الأحاد ثروات دولة كاملة وتتجاوز الألوف إلى الملايين، والملايين إلى المليارات، ومن المليارات إلى ألوف المليارات مما يعجز الخيال عن تصوره، ومما لا يمكن أن يتأتى إلا إذا أضيف إلى عنصر العمل والكد .. السرقة والخداع .. والتزييف والتزوير .. وكله يهون في سبيل المال.



[٢]

«وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى»(*)

هذا مبدأ من أخطر وأشمل المبادئ أن الإنسان لا يكون له إلا ما عمل له، أما إن جاءه من الحظ واليانصيب، أو جاءه بالميراث، أو لقيه في الطريق فإنه لا يُعد في عداد المال الذي يأتي به العمل، وتعبير «مَا سَعَى» أكثر دلالة من العمل.لأنه يدل على مواصلة السير في سبيل العمل .

إن الآية تقرر أن العمل هو أصل القيمة، وأنه بقدر ما يعمل الإنسان بقدر ما يحصل على عائد، وبقدر ما يزرع بقدر ما يحصد، والعمل بهذه الطريقة له لذة ومعنى، وهو الذي يأتي بالثمرة .

قد يكون من الصعب أن نتصور عالمًا لا يلبس رجاله ونساؤه إلا زيًا واحدًا كأنهم في إحرام الحج، ولا يتجرأ واحد على الآخر وينطلق و« يَسْعَى» كل واحد لعمله ثم يأتون آخر النهار وقد أمضوا الساعات المقررة في العمل، فيحاسب كل واحد على ما قدمته يداه .

في هذا المجتمع قد يسبق النحيف السمين، وقد يغلب القوي الضعيف، وهكذا نرى أول «تمييز» قامت به الطبيعة، ووضعت أفرادًا فوق أفراد آخرين .

وهذا التمييز هو ما يمكن أن يعود إلى عوامل ذاتية معينة سواء صحة البدن أو قوة الإرادة، وستبرز المساواة عند البداية المتميزون بفضل العمل، ويُعد هذا التمييز عدلاً .

ولو سرنا مع هذا العرض إلى النهاية، لكان من الممكن أن نصدر صكوك عملية، نسبة إلى العمل .

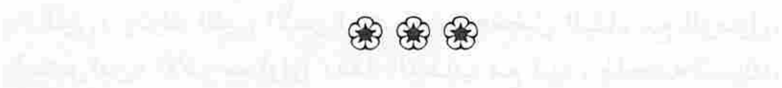
في الأيام الأولى للثورة الصناعية حاول «أوين» وزملاؤه إصدار صكوك عمل فهناك صك بعمل ساعة، وهناك صك بعشرة،

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم» ، العدد (٢٦٠٦) ، بتاريخ ٢/٨/٢٠١١م .

وكأنما تطبق الآية «وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى»، ولكن التجربة فشلت بالطبع، وكان هناك متاجر ومصانع تطبق هذه الصكوك وتبيع سلعها طبقاً للأساس المتفق عليه للقيمة التي تكونها ساعة عمل .

إن المجتمع البشري أشد تعقيدًا مما تصوره «أوين» وأصحابه، إنه تعبير عما في النفس الإنسانية من فجور وتقوى، إن أبوابه مفتوحة يدخلها البار والفاجر .. الصادق والكاذب، كما أن جنباته تتسع لكل ما يتفتق عن ذكاء البشر من وسائل للتحايل، كما أن «يسعى» يمكن أن تتقبل ظهور رجال أعمال يملك كل واحد منهم عشرات الملايين، بل بمئات الملايين، ولكن هذا لا يكون سعيًا لعمل ولكن اقتناصًا للأموال بكل الوسائل من خداع أو نفاق أو كذب وتزييف .

ولكن يبقى بعد هذا «وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى» شعارًا يفخر به الكثيرون، ويرون فيه العدل والصدق والحقيقة، لأن الله هو الذي قاله وهو من سوف يحققه في يوم الحساب .



[٣]

«ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ»(*)

كانت عادة التبني موجودة في العالم القديم، وبمقتضاها كان يمكن لأي فرد أن يعلن تبنيه لصبي أو فتاة، مع العلم بأنه ليس من صلبه، ولكنه وجد من ظروف الحياة ما يسمح، بل ما يوجب هذا، هناك الفتى اليتيم الذي فقد أمه وآباه فأصبح الضياع يهدده، ولا يمكن إلحاقه بعمل، بل لا يمكن إلحاقه بمدرسة تشترط عند قبول الطالب أن يكون له «ولي أمر»، ومن ناحية أخرى نجد شيخًا تقدم به العمر ولم يوهب بولد أو ببنت، فأصبح وحيدًا وأصبح يخشى على ثروته وميراثه من الضياع، ولو أنه تبنى ولدًا نابهًا ذكيًا لأراح واستراح ولحل مشكلة إرثه واسمه بإجراء واحد.

ومعروف أن الرسول في الأيام الأولى للدعوة تبنى زيد ابن حارثة، وكان زيد قد اختطف من والديه في إحدى الغارات التي قامت بين القبائل العربية وباعوه للسيدة خديجة التي وهبته للنبي، وبعد فترة طويلة عرف أبوه بأمره، فجاء ومعه إخوانه للرسول وطالبوا به النبي، وترك النبي الأمر لزيد نفسه ففضل البقاء مع الرسول، وأكبر أبويه الأمر وحاولوا دفعه الذهاب مع أبيه، ولكنه تمسك، وأكبر الرسول هذا الوفاء، فأعلن تبنيه له ورضي والده وسافر مطمئناً إلى أن ابنه أصبح ابناً لمحمد، وظل زيد يطلق عليه ابن محمد حتى أنزل الله تعالى تحريم التبني.

انتقد أناس كثيرون تحريم الإسلام للتبني، ولم يروا في التبني غضاضة أو ضير مادام الفريقان يريدونه، ولكني أعتقد أن الإسلام كان لابد أن يحرمه لأنه مخالفة صريحة للحقيقة، وكذب يراد له أن يكون مشروعًا، وهذا أمر يرفضه الإسلام، فالإسلام يريد الحقيقة «ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم»، العدد (٢٦٠٧)، بتاريخ ٢٠١١/٨/٣م.

فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَكِن مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا» .

إن القرآن يعلمنا دائمًا أن الأمـــر ليس بالأماني .. ولكن الحقيقة .

وواضح بالطبع أن إلغاء التبني لا يمنع من أن يتولى رجل ما ابناً يعلمه كما لو كان ابنه ويعامله كذلك، ولكنه لا يغالط الحقيقة في الاسم فليحمل اسم أبيه «فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ» .



[٤]
«وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ»(*)

قرأت تعليقات وتفسيرات عديدة لهذه الجملة كان فيها اجتهاد وإبداع، ولكني أحسست في نفسي معنى آخر للآية، معنى يلمس جروحًا لم تندمل بعد، إن منظر البئرِ المعطلة مع أنها هي التي يُستسقى منه الماء والكهرباء وري الأرض وغيرها مما لا تبقى الحياة إلا بها ولكنه معطل، في حين ينتصب إلى جانبه قصر مشيد، أفلا يوحي جمع هذين بشيء من الخلل في التنظيم الاقتصادي والاجتماعي للدولة، فكيف جاز أن يخرب ويعطل البئر الذي على مائه يعيش الناس، وبجانبه قصر ممرد لا يسكنه أحد، لأن مالكه لديه من القصور ما يمكنه أن يسكن فيها قبل أن يحتاج إلى هذا القصر، أفلا نرى صورة لهذه الآية في حياتنا، ألا نرى المساكن العشوائية التي لا يصلها إلا ماء المصارف، ولا تنيرها الكهرباء، وتعصف الرياح بما صنعت من ورق كرتون أو صفيح، وتجد الأطفال لا يرتعون ويلعبـــون ويضحكون ولكن يجلسون ساهمين واجمين خائفين من عدو مجهول، ومع أنهم لا يكادون يجدون ما يسد الرمق، فعلى خطوات منهم يقف القصر ممردًا مشيدًا، داخله كل شيء، وفي ثلاجاته الأنواع المختلفة من اللحـــــوم، ويضم مولدًا للكهرباء وآخر للمياه، ولا ينقصه إلا من يعيش فيه.

عندما زرت لندن كان أبرز ما لفت اهتمامي منظر البيوت، إنها صفوف من بيوت لا يختلف واحد منها عن الآخر، ولها طريقة واحدة في البناء، فكل منها له حديقة خلفية صغيرة، والأدوار ثلاثة، ولا يمكن التمييز بين البيوت إلا بالأرقام، وقد بدا لي المنظر مملاً ولكنه يحقق العدالة والمساواة، فمن حق كل واحد أن يأمل في مثل

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم»، العدد (٢٦٠٨)، بتاريخ ٢٠١١/٨/٤م.

هذا البيت ولكن لا يخطر بباله أن يبني قصرًا مشيدًا خاصة إذا كانت البئر معطلة .

إن يد العدل عندما تعمل في المجتمع فإنها تزيل كل صور التفارق وتشيع حاسة المساواة بحيث لا يقع المجتمع في مثل هذه المفارقات التي تقع فيها الدول النامية، والتي انتقدها القرآن عندما تحدث عن البئر المعطلة والقصر المشيد .



[٥]

«وَتحْسَبُونَهُ هَيِّناً وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ»(*)

«الالتزام» كلمة تمثل أعظم تمثيل ما يجب أن تكون عليه العلاقة بين الإنسان والإسلام.

وفي الحديث المشهور «إذا نهيتكم عن أمر فلا تأتوه وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم»، فبين أن الالتزام السلبي قد يكون أعظم من الالتزام الإيجابي لأنه يمثل شرًا مكفوفاً .. وهو أهم من أن يكون مغنمًا مطلوبًا، ولم يكن عبثاً أن تأتي معظم الأوامر الإلهية بصيغة النهي ولعله كان الأصل في المبدأ التشريعي لمنع المضار مقدم على جلب المنافع.

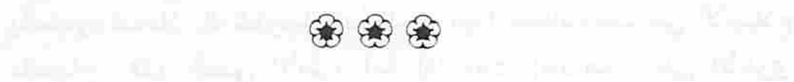
وفي هذه الآية «وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّناً وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ» انتقد القرآن على فريق من المسلمين أباحوا لأنفسهم النيل من إخوانهم دون سند أو دليل، إلا دعاوى وأقاويل، وأنهم في عملهم هذا لا يستشعرون مدى ما فيه من مخالفة لآداب الإسلام وبُعد عن الالتزام بها، وقد جاء في وسط آيات تعلم أفضل تعليم ما يجب أن يكون عليه المؤمن عندما يترامى إليه شيء يمس أخاه فعليه أن يرفضها وأن يأخذ أمر أخيه على أحسنه وأن يستبعد كل شائعة أو اتهام «لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْراً وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ»، ووضح لهم «وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ❖ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّناً وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ ❖ وَلَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ».

فإذا أضيف إلى ذلك آيات سورة الحجرات «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم»، العدد (٢٦٠٩)، بتاريخ ٢٠١١/٨/٥م.

عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الظَّالِمُونَ ❖ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنْ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ ❖ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ» .

نقول إذا أضيفت هذه الآيات بعضها إلى بعض لوجدنا لدينا وجبة من الإتيكيت الإسلامي تصلح حال الأفـــراد .. والجماعات أيضًا .



[٦]
«وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا»(*)

هذا جزء من الآية ٩ من سورة الحجرات، وفي يوم ما ألهمتني هذه الآية أن أكتب رسالة صغيرة باسم «محكمة السلام الإسلامية الدولية» أو «محكمة الآية ٩ من سورة الحجرات».

لقد وجدت فيها كل ما هو مطلوب في محكمة دولية، فأوجبت الصلح عندما ينشب نزاع بين طائفتين من المؤمنين، وهو أمر يجعل إجراء الصلح أمرًا يجب تطبيقه، ولا ينتظر في هذه الحالة طلب إحدى الدولتين التدخل، أو رفض إحـدى الدولتين هذا التدخل باعتباره تدخلاً في شئونها الداخلية، فإذا كللت مساعي الإصلاح بالنجاح، فقد قضي الأمر، أما إذا بغت إحداهما على الأخرى ورفضت الصلح فعلينا أن نقاتل الدولة الباغية ، فإذا فاءت إلى أمر الله، أي إذا سلمت بخطئها ففي هذه الحالة يُعاد أمر الصلح، ولا يتخذ رفضها وتحديها علة لتشديد العقوبة، وإنما يكون العدل هو الرائد .

وتطوى هذه الصفحة التي بدأت بالبغض وانتهت بالعدل مع ختام وتذكير أن المؤمنين جميعًا إخوة، وأن الصلح واجب دائم لهذا .

عند مقارنة ما جاء في هذه الآية بما تقضي به بعض أصول المحاكمات الدولية من أن الدولة لا تتدخل إلا إذا طلب الطرفان أو طرف واحد التدخل، لأن الإسلام يرى في هذا نوعًا من البغي الذي يجب عدم الاستسلام له، كما أنه يقضي بأن يكون الغرض من التدخل هو منع التعدي وحفظ الحقوق وتذكير المعتدي أنه إذا كان يستطيع بحكم القوة أن يهزم جارته الضعيفة، فإن الدول الأخرى لا يجوز لها أن تجري هذا فتسمح للقوة بأن تنال حقاً، إنها تتدخل وعندما تنتصر فلا يسمح لمشاعر الانتقام أن تتدخل، فقصارى ما

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم»، العدد (٢٦١٠)، بتاريخ ٢٠١١/٨/٦م.

يمكن أن نصل إليه أن نصلح ما أفسدته، أما ما هو أكثر من ذلك فيمكن أن يثير عاطفة الدولة الأخرى ويجعلها تتربص وتنتظر الفرصة الملائمة لتاخذ بثأرها، وعندئذ تستمر الحرب.

لو طبقت الدولة الإسلامية نص هذه الآية لما قامت بينها حروب ومنازعات ولو قامت لما تركت حتى يفترس الأقوى الأضعف أو حتى تفضي كل واحدة على الأخرى، وتسوى كل الخلافات بروح العدل والقسط والإنصاف.



[٧]
«الْكِتابَ وَالْمِيزَانَ»(*)

كان العرب أمة وثنية تحتفي بسبق جواد، وتفتخر بظهور شاعر، وتعكف على الخمر، وعندما تشح السماء فإن بعضها يهاجم البعض الآخر، ويستاق ما عنده من أنعام، ويسبي النساء والأطفال، وكان دور الإسلام أن يجعل من هذه القبائل المتنافرة «أمة» تؤمن بالله الذي تتناهى إليه كل الآمال وتصغر أمامه كل الأهوال، وجعلهم أخوة متحابين تربط ما بينهم القيم الإيمانية من مساواة ومحبة وإيثار وشجاعة تصغر أمامها الحياة، وأعطى هذه الأمة ما تدعو إليه وما تفخر به «الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ» .

وهكذا انطلق العرب وقد خلقهم الإسلام خلقاً جديدًا، وقضى على العداوة والتعصب القبلي، واستبعد الفخر بالجواد السابق أو القصيدة العصماء، كما جعلهم يترفعون عن شرب الخمر التي تقضي على العقول وتستحل المحرمات، وأهم من هذا كله أنه وضع في يدها «الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ» .

انظر إلى البلاغة الساحرة في تعبير «الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ»، وكيف أن هاتين يوجبان من المعاني ويثيران من العزائم ما يعجز عنه أي تعبير صريح آخر .

هذه الأمة الشابة الفتية التي انبثقت من عرب الجاهلية بعد أن صقلها الإسلام، انطلقت حاملة «الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ»، رافعة المعرفة والعدالة إلى شعوب الحضارات الطبقية القديمة التي كانت تحكم بالسيف وتقنن الرق وتتفنن في ظلم الناس فحررتهم وساوت بينهم فلا فخر لعربي على أعجمي إلا بالتقوى و«لا طبقية بعد اليوم» وفتحت أمام المسترقين كل الأبواب، ولا يفرق بين أصغر فارسي وابن أنبل عربي إلا أن يقولوا «أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله» ،

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم» ، العدد (٢٦١١) ، بتاريخ ٢٠١١/٨/٧م .

فقالوها عن إيمان بسماحة الإسلام والأمــل في مستقبل أفضل وأطلقوهم على آفاق العلوم والفنون الإسلامية فغلبوا العرب، وأصبح الفقهاء المعتمدون في الحجاز منهم بنسبة ٥ إلى ١ عربي، بل ولم تقف أمامهم اللغة العربية إذ أصبح عميدها وشيخها «سيبويه» وأصبح كتابه هو «الكتاب».

كان الإسلام ميلادًا جديدًا لشعوب هذه المناطق التي كانت مستعبدة لإمبراطورية الرومان والفرس، بل إن هذه المناطق أصبحت هي عواصم الخلافة بعد أن كانت مدناً مستعمرة محتلة لا تملك من أمر نفسها شيئاً، فأصبحت سورية عاصمة للخــلافة الآموية، ثم أصبحت بغـــــداد عاصمة الخلافة العباسية، ثم أصبحت القاهرة عاصمة الدولة المصرية، وكانت هذه المناطق كلها من قبل ترسف في إسار الفرس أو الرومان.

لقد أثبتت ثورة «الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ» أنها أقدر على التقدم من أي عامل آخر، فلا المال ولا الموارد ولا الموقع .. إلخ، يمكن أن يعدل ما يرمز إليه «الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ» من المعرفة والعدالة.



[٨]

«قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا»(*)

هذه آية من الآيات التي تلهم الكثير، تلهم أن الله تعالى في سماواته السبع «يسمع» صوت تلك المرأة الأعرابية التي جاءت تشتكي إلى الله من زوجها الذي قال لها أنت عليَّ كظهر أمي، وهي كلمة تقطع العلاقة الزوجية ما بين الزوجين، وجعل الله بها الزوج لباسًا للزوجة والزوجة لباسًا للرجل، والرسول يفكر فيما يفعل وقد أوقع هذا الزوج على نفسه هذا اليمين الغليظ، ونزل عليه الوحي بالحل وهو أن هذا اليمين ليس إلا لغو، لأنه لا حقيقة فيها فـ «الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلاَّ اللاَّئِي وَلَدْنَهُمْ»، والقرآن هنا يؤكد ما ذهب إليه عندما أبطل التبني لأنه يخالف الحقيقة، وحتى يستأصل هذه القالة، فقد أوقع عقوبة على من يقولها هي تحرير رقبة «فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِيناً»

ولعلنا نلحظ في هذه الآية الأساس الذي قام عليه تحريم التبني وهو عدم قيامه على الحق وعدم الاعتداد بما يبنى على هذه المخالفة، كما نلحظ في آيات الملاعنة كيف جعل الله تعالى «الشهادة» محل «الشاهد» الذي لا يتيسر أصلاً في مثل هذه الحالة، وهنا أيضًا نجد أن الآية جعلت للفقير الذي لا يملك شيئاً أن يصوم، فإن كان لا يستطيع الصيام «فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِيناً»، فالإسلام يلحظ حالة المذنب كما يلحظ حالة المحسن ولا يريد أن يضيق على أحد منهم، وإنما أن يفسح أمام الجميع مجال البدائل بحيث يختار ما يطيق، وأجمل ما في هذه العقوبات أن ليس فيها جلد أو حبس، ولكن «إفراجات» عن مملوكين أو إطعام لجائعين.

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم»، العدد (٢٦١٢)، بتاريخ ٢٠١١/٨/٨م.

بعد هذا بسنوات طوال، كان الخليفة عمر بن الخطاب يسير في إحدى طرقات المدينـة، عندما استوقفته عجوز، وجهرت له بقول طويل .. وصوت عالٍ، وعمر صاغ .. ساكت ، فتعجب من ذلك أحد الناس وعبر عن ذلك لعمر الذي قال له «ويلك إن هذه هي خولة التي استمع الله تعالى لصوتها وشكايتها من سبع سموات، فكيف لا يصغى لها عمر» .

ألا سقيا لعهد كانت الأرض تتصل فيه بالسماء، وكانت السماء تخاطب الأرض، وكان أهل الأرض مطيعين لرب السماء .



[٩]
«قَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ»(*)

يأتي هذا الثالوث في كثير من آيات القرآن، يقصد به في بعض الحالات فرعون مصر ووزيره قارون وصاحب ماليته هامان، كما يلحظ في حالات أخرى أن يقصد به كل القادة الذين يسيرون سيرتهم ويعملون عملهم.

وواضح بالطبع أن القرآن يرفض سياسة هذا الثالوث جملة وتفصيلاً، فهـؤلاء هم «أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا» وهم الذين يتحملون المسئولية الأولى عما أصاب قومهم من انحراف في العقيدة واستبداد في الرأي ومفاسد في الحكم، وهو يرى فيهم أسوأ صورة لنظام سياسي.

لقد عبر القرآن في العديد من الآيات عن الحكم الرشيد، بقدر ما تجنب أن يذكر أسماءً، لأن الحاكم هو واسطة عقد الحكم، وعليه تتوقف سعادته وتعاسته وفاقته وشقاءه.

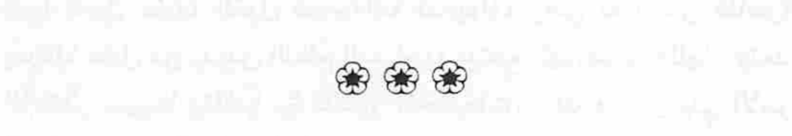
القرآن يبشر الذين «لا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا»، «الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنْ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ»، ويحذر من نتيجة الإعراض عن هدى الله « فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ».

وإذا أخذنا بحكم القرآن على الملوك يكاد أن يكون نقدًا خالصًا «إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ»، «إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنْ الْمُفْسِدِينَ».

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم»، العدد (٢٦١٣)، بتاريخ ٢٠١١/٨/٩م.

إن القرآن الكريم لا يأتمن ملكًا على سـفينة في أرضه «وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا» .

فإن الحديث المشرق الذي يفيض بالرضا والحمد لحكم المؤمنين الذين لا يسعون في الأرض علوًا، وبين هذه النماذج من الطغاة والفراعين الذين شـغلوا صفحات التاريخ بأنباء حروبهم واستبدادهم ولا يزالون على ظلمهم وغرورهم حتى تأتي ساعتهم الأخيرة ويبدو لهم سيئات ما عملوا، ولكن هيهات إن الموت أسرع منهم وقد ختم حياتهم على ما فيها من مساوئ .



[١٠]
«أمرْنا مُترَفِيهَا»(*)

يأتي هذا التعبير في أكثر القراءات شيوعًا بجعل «أَمَرْنَا» بمعنى أمرناهم ضد نهيناهم، ولكن هناك قراءة أخرى تجعله من «التأمير والإمارة» وهذا هو المعنى الذي نفضله .

وتمام الآية «وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا»، وهي تعبر عن ظاهرة يعرفها كل من يدرس النظم السياسية ويتابع ظهورها وتحللها ، وتعد الأكثر شيوعًا وتأثيرًا في تدهور المجتمعات، تلك هي أن يلي الأمر المترفون الذين ألفوا حياة الترف، ويرون أن الولاية يجب أن تزيد لهم فيها ، وقد ظهر من قال «كان عمر بن الخطاب يحرم آله في سبيل الله[1] ، وأنا أعطي آلي في سبيل الله!»[2] ، وأصبح ذلك دأبًا ووسيلة للاستحواذ على المال حتى قال قائلهم :

أحار بن بــدر قد وليت ولايــة فكن جرذاً فيها يخون ويسرق

[أحار بن بدر اسم المخاطب واختصارًا له واسمه حارث]

فماذا ننتظر من دولة تتصرف كل يد تعمل فيها للكسب من منصبه : بالرشوة أو الاختلاس أو اهتبال الفرص لكي ينمي ثروته، ويفقر الدولة بقدر ما يثري نفسه .

إن النهاية آتية لا ريب فيها ، لأن الحكم لا يجوز أن يكون تجارة وكسبًا ، وإنما هو خدمة وقيامًا بواجب .. وتحقيقاً لهدف عام هو أن يسهم عمله في ارتقاء الأمة .. في حل مشاكلها .. في مساعدة عامة الناس ليحيوا حياة طيبة في أمن وسلام .

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم» ، العدد (٢٦١٤) ، بتاريخ ٢٠١١/٨/١٠م .
(١) بمعنى يحرم أهله من أشياء طلبًا لرضا الله خوفاً منه أن يغضب عليه إذا أعطاهم
(٢) بمعنى أعطى أهلي أشياء طلبًا لرضا الله لئلاً يغضب عليّ إذا لم أعطهم .

الذين يقدرون العمل العام لا يطمعون في أكثر من أن ينجو بأنفسهم من إغراءاته، لأن السلطة مفسدة، ولابد لكل من يشغلها أن يتعرض لذلك ولا ينجو من ذلك إلا بفضل حرية المعارضة وأن تقوم الصحافة بفضح كل صور الانحراف وأن تحاسب الأحزاب كل العاملين من الرئيس حتى الخفير، فهذا وحـــــده ما يعصم الرجل الشريف.

إن كل من يلي منصبًا خطيرًا أو مسئولية ضخمة لا يمكن أن يكون أكبر من يوسف الذي تعرض للإغراء، فدعا الله من صميم قلبه «وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنْ الْجَاهِلِينَ».

إن كل من يشغل منصبًا هو على شفا خطر عظيم، وسيكون محظوظاً لو نجا بنفسه منه.



[١١]
«وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ»(*)

موقف الأديان من الفتنة واحد، فالمسيحيون يدعون أن لا يدخلوا في تجربة، والمسلمون يقولون لا تتمنوا لقاء العدو، وهناك حديث مشهور «الحلال بيِّن والحرام بيِّن وبينهما مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه»، وعلى أساس هذه الفكرة وضع الفقهاء مبدأ من أكبر مبادئ الفقه الإسلامي وهو «سد الذريعة»، اعتبر فيه أن كل ما يؤدي إلى الحرام فهو حرام.

والقضية هي قضية الضعف البشري وتقدير كل واحد لمدى مقاومته أو استسلامه، وقد عرضت سورة يوسف هذه الناحية من الطرفين، طرف الغاوي وطرف المقاوم الذي خاطب ربه قائلاً «السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ»، ولكنه مع هذا يعترف «وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ».

فدل ذلك على أن الإنسان قد لا يستطيع أن يقاوم الإغراء إن لم يخصه الله برعايته، فإذا كان هذا هو الأمر بالنسبة لنبي كريم، فكيف يكون بإنسان عادي ؟

هل معنى هذا أن المبدأ المقرر الذي أشرنا إليه في مستهل الكلمة أعني أن البعد عن الفتنة، أو الشر هو المسلك الأسلم ؟ هل يدعم هذا المثل الشعبي الذي يقول «إبعد عن الشر وغني له !»، وهو مثل يبدو غاية في الحكمة والإصابة، أم إن هذا يُعد نوعًا من الجبن والاستخذاء والفرار من المعركة، وإن عليه أن «يَقْتَحِمَ الْعَقَبَةَ» لا

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم»، العدد (٢٦١٥)، بتاريخ ٢٠١١/٨/١١م.

بمعنى أن يستسلم للإغراء، ولكن أن يقاوم وينتصر، وحتى إذا لم ينتصر فحسبه أنه دخل المعركة وأبلى بلاءً حسناً، ورب هزيمة مشرفة أفضل من انتصار هزيل.

إنه خيار صعب ما بين حماية يحققها المبدأ أصلاً وبين مغامرة قد يخرج منها مثخناً بالجراح، حتى عند الانتصـــــار، يظل ابتهال يوسف «وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنْ الْجَاهِلِينَ» لأنه مهما كانت ثقتنا في أنفسنا، فإن ثقتنا في الله أكبر وأعظم.



[١٢]
«لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ»(*)

عجيب أمر الإسلام، كل دين يتحدث عن نفسه باعتباره طريق الهداية والنجاة، ولا يشير إلى الأديان الأخرى، وقد يشير إليها بما لا ينصفها إلا الإسلام، فالإسلام يسرد لنا الكثير من أنباء الأنبياء السابقين ومن كفاحهم وجهادهم في سبيل الله ويضفي عليهم ما هم أهله من الثناء . أغلب الظن أن جزءًا من هذا يعود إلى أنه آخر الأديان، ومن ثم فإنه يعلم عن الأنبياء ما تعلمه الأديان السابقة، ولكن الإسلام لا يسوق الحديث عن هؤلاء الأنبياء من باب الذكر التاريخي ولكن ـ وهذا هو الهام ـ من باب فرض الإيمان بهم على المسلمين، وهو يذكر أسماء لفيف منهم، ويضيف «لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ»، كما أنه يذكر في مجال آخر أنه لم يقصص على الرسول قصص كل الأنبياء .

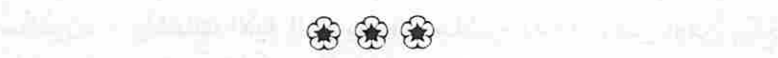
إن المسلم يقرأ في سورة البقرة «آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ»، كما يقرأ في سورة آل عمران «قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ» .

إن القارئ المسلم لهذه الآيات لا يشعر بحساسية نحو هؤلاء الأنبياء الكرام ولا يجد ما يدعوه للتفرقة بينهم، بل يجد تحريم أي تفرقة بينهم .

فهل يعقل أن يكن لهؤلاء الأنبياء ولما جاءوا به من دين نفورًا أو صدودًا .

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم»، العدد (٢٦١٦)، بتاريخ ١٢/٨/٢٠١١م .

إن هذا أمر بعيد، والأقرب هو أنه سيؤمن أن الأديان واحدة في أصلها، وأن الأنبياء أخوة، وأن العلاقات التي يجب أن تكون ما بين الأديان بعضها بعضًا هي علاقات الأخوة والمحبة، وأن الجميع يقفون في خندق الإيمان ليواجهوا عولمة شرسة تحارب بكل سلاح للتفرقة بينهم وإضرام العداوة والبغضاء حتى تستطيع أن تهزم كل دين على حدة وتجعل من العالم بأسره سوقاً للمنتجات الأمريكية، ومن الشعوب مستهلكين تأكل البيتزا وتشرب الكوكاكولا .



[١٣]

«وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنهُ»(*)

قال صاحبي «أوقعت نفسك في مأزق، كنت تريد أن تقول إن الإسلام يعترف بكل الديانات ويؤمن بكل الأنبياء وذكرت الآية (٨٤) من سورة آل عمران، ونصها «قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ» ، وأغفلت الآية التي بعدها مباشرة (٨٥)، وهي «وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ» ، فقد نصت الآية على أن الدين حقاً هو الإسلام وأن أي دين آخر «لَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ» ، أفلا ترى أن ذلك يتناقض مع الآية السابقة وما تنص عليه من الإيمان بكل الديانات والأنبياء الذين ذكرتهم»، قلت له ليس هناك تناقض، إذ يجب أن نفهم منها ما يتوافق مع الآية التي جاءت بعدها وهي الآية (٨٦) وهي تقول «كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ» .

إن أي واحد يتصدى لتفسير آية يكون عليه أن يقرأ الآيات الخمس أو الست قبل هذه الآية والآيات الخمس أو الست بعدها حتى يتبين له المقصود، لأن الآيات تبدو كما لو كانت آية مستقلة عما سبقها وعما بعدها، ولكن الحقيقة أن الآيات متصلة، فهي كموجات البحر، تظهر كل موجة كما لو كانت مستقلة في حين أنها كلها مترابطة، والقرآن باعتباره كتاب فني بلغ الغاية من الفن يكثر من الاستثناء أو التخصيص أو غير ذلك مما لا يرد في الآية الأولى التي تحكم صياغتها الفنية بأن تكون ما كانت عليه، ثم يأتي بعدها ما يبين المعنى، فإذا قرأنا الآية التي سبقتها وهي الآية

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم» ، العدد (٢٦١٧) ، بتاريخ ٢٠١١/٨/١٣م .

التي توجب الإيمان بكل الديانات وكل الأنبياء مما يبدو كما لو كانت متناقضة، ولكن الآية التي بعدها «كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ» توضح أن المقصود بالآية جماعة خاصة آمنت بالرسول «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ»، إذا أرادوا الرجوع من ردتهم الغليظة وأفعالهم العدوانية فلن يقبلهم الإسلام وأوضح مبررات ذلك، فالحديث إذن ليس على مطلقه وإنما هو حالة خاصة بعينها .

ثم دعني أقول لك لماذا تعترض على رفض الإسلام .. إسلام فئات بعينها لظروف بعينها، في حين أنه اعترف بالأديان السابقة، وهل تتوقع أن ديناً يعلن أن الدين الآخر أفضل منه ؟ هذا مستحيل عمليًا، وإلا يوجب عليه أن يؤمن بهذا ويهجر دينه، ولكن الإسلام في الوقت الذي آمن بهذه الديانات وهؤلاء الأنبياء، فإنه لم يوجب على هؤلاء ترك أديانهم والإيمان بالإسلام، ولكنه كان ينتظر منهم الإشارة إليه وأن لا يفرقوا بينه وبين أديانهم، كما قررت الآية (٥٨) مع التمسك بدياناتهم، كما أن المسلمين يؤمنون بهذه الأديان ويؤمنون أيضًا بكل الأديان الأخرى، ولا يرون في هذا مجافاة لحرية الفكر والاعتقاد، ولربما لو شُرِحَ الإسلام لأتباع أريوس وأتباع نسطور لآمنوا بالإسلام، لأن الأول يؤمن أن المسيح رسول ونبي، ولأن الثاني يؤمن أن مريم ولدت رسولاً لا إلهاً .



[١٤]
«الإسلام ديـن الجميع»(*)

يرى الإسلام أن كل الأنبياء والرسل السابقين هم مسلمون، لأن الإسلام لا يرتبط بشخص أو بقبيلة أو بمدينة، ولكنه يشتق من إسلام القلب والوجه لله، وهذا هو الخصيصة العظمى للأديان، وقد ركز القرآن عليها وأغفل ما هو دونها، وعلى هذا الأساس قررت الآية «مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنْ الْمُشْرِكِينَ» (آل عمران : ٦٧)، «وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ» (العنكبوت : ٤٦).

وأخيرًا فيجب أن يذكر أن الإسلام قنن وأبَّد وجود الأديان وضرورة التعايش بينها على أساس الحالة الراهنة Status quo في سورة الكافرون قرر أن الكفار لن يسلموا وأن المسلمين لن يكفروا وعلى هذا الأساس بنى مبدأ «لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ».

أما ما جاء من اختلافات ما بين هذه الديانات فالله يحكم فيها يوم القيامة، ويعتبر أي حكم من دين على دين نوعًا من الافتيات لأن كل ما بين الأديان إلى الله يوم القيامة.

إن أمر الأديان يمكن أن يكون سهلاً .. مبسطاً إذا أخذناها إيماناً بالله .. وبالأنبياء .. وبالكتب .. واليوم الآخر، فهذا ما يوجد في كل الأديان وما يجعلها واحدة في الحقيقة، ولكن الذي عقدَّها هو ما دس على الكتب المقدسة على الأقل عند ترجمتها، وقد ترجمت كلها من لغتها الأصلية، أو نتيجة للخلافات المذهبية في الأديان أو ما جاءت به المؤسسة الدينية تدعيمًا لها وكانت النتيجة ليس فحسب تعدد الأديان بل أيضًا رغبة كل مؤسسة دينية في الاستحواز على

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم»، العدد (٢٦١٨)، بتاريخ ٢٠١١/٨/١٤م.

الآخر، بما في ذلك الإسلام الذي يقول قرآنه بفصيح العبارة «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ»، ويقول «قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ».



[١٥]
«لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ»(*)

مكانة الرحمة في الإسلام تثير التساؤلات، فهناك قالة منتشرة عن الإسلام أنه هو دين الحرب والقتال، دين السيف والسنان، وأنه دين «عملي» لا يعترف بالعاطفة ولا يجد الحب مكاناً فيه.

هذه الفكرة المنتشرة خاصة لدى المستشرقين تخالف - بل تضاد - روح الإسلام إن اسم الإسلام نفسه يكشف عن طبيعته فهو السلام، والمسلمون يتبادلون تحيتهم بالسلام، والسلام من أسماء الله تعالى وإن رحمة الله تفوق بمائة مرة رحمة الحمامة بوليدتها، وأن ما يتراحم به الناس جميعًا في هذه الحياة إنما يتم بواحد من مائة من رحمة الله، وسور القرآن مبدوءة دائمًا باسم الله الرحمن الرحيم، ورسول المسلمين مرسل رحمة للعالمين.

وخذ صفة الله «قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ»، فهل ترك شيئاً استثناه من رحمة الله، إنه لم يستثن شيئاً بل قال «إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا».

آية شاملة .. كاملة .. ليس فيها استثناء وليس فيها تحفظ، بل هي تنادي الذين يأسوا من رحمة الله لأنها «وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ».

إن الإسلام يعترف بالضعف البشري.

واستكشف أحد الصحابة ويدعى حنظلة في إحدى تأملاته أنه يكون عند رسول الله خاشعًا .. تقيًّا .. راضيًا .. مرضيًا، ثم يعود إلى بيته فيعيش في عالم آخر عالم الأكل والشرب .. عالم الهوى

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم»، العدد (٢٦١٩)، بتاريخ ٢٠١١/٨/١٥م.

والشهوة، فتصور أنه قد دخله النفاق، وسار ليشكو حاله للرسول فقابل أبو بكر وقال له نافق حنظلة، فسأله أبو بكر وكيف ذلك ؟ فقص عليه ما استشعره فقال أبو بكر وأنا أيضًا أستشعر هذا، وذهبا للرسول وقصا عليه ما استشعراه، فابتسم الرسول وقال «لو تكونوا مع أهلكم كما تكونون معي لصافحتكم الملائكة .. ولكن ساعة وساعة»، فأي سماحة مثل هذه .. وأي اعتراف بما أباحه الله من لهو واستمتاع مثل هذا .

ومما يتميز به الإسلام مبدأ «البراءة الأصلية» الذي يعني أن كل الأفعال تعد بريئة ما لم ينزل في تحريمها نص جلي من القرآن ليس فيه تأويل أو احتمال، فأي سعة وسماحة وحرية مثل هذا .



[١٦]
«وَلَوْ أنمَا فِي الأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أقْلامٌ»(*)

كثيرًا ما يضرب القـــرآن المثل ليقرب على القارئ المعنى المطلوب ولا يكون هناك صعوبة أو لبس في فهمه وفي الوقت نفسه يوجد الأثر المطلوب ، ومما ينفرد به القرآن، ولا يمكن لكتاب آخر أن يلجأ إليه أو يأت بمثله أن يضرب المثل «وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ» .

فياله من مثال يعطي القارئ فكرة عن عظمة «كَلِمَاتُ اللَّهِ» وهو مع هذا حقيقي لأن الأرض كلها بما فيها من محيط هادي حجمه أكبر من القارات وعمقه يصل إلى ستة آلاف متر، وبعده البحار، فأين هي الأرض من ملك الله، إن الكرة الأرضية كلها ليست إلا رملة في هذا الكون .

إن تأمل هذا المثال يجعل الإنسان «يدوخ» فأي شيء أكثر من أن تكون قارته حبة رمل في صحراء، فأين هو، وهل يكون له وجود وكيان وحجم ؟ طبقاً لهذه القياسات لا يمكن تصور مدى ضآلة الكائن البشري، ولكن الله تعالى اختص هذا الكائن البشري وقارته تلك الصغيرة بالنسبة للكون والكبيرة بالنسبة لما تحمله على ظهرها وما تدخره في أعماقها ما يكفي لإطعام المليارات الستة من الآدميين الذين يعيشون، فما أعظم إحسانك يا الله عندما أعطيت الإنسان العقل والفكر والقلب الحساس والحرية في العمل ، وبهذا جعلت له حيوات في عالم واحد .

كان الإمام أحمد بن حنبل يشبه الرجل الذي يبحث عن المعرفة بالذي يسبح في وسط المحيط، أين يذهب وكيف ينجو ؟ ولم

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم» ، العدد (٢٦٢٠) ، بتاريخ ٢٠١١/٨/١٦م .

يدر بخلده أن هذا الإنسان قد يتوصل إلى صنع «صاروخ» يضع فيه عددًا من الرجال ويطلق ليتجاوز بهم الأرض ويذهب بهم إلى القمر .

إن التأمل في ما تضمه الأرض في جوفها وعلى سطحها، وفي دراسة الإنسان غذائه وملكاته لآيات على عظمة الله وعلى إحسانه وعطائه الجم للإنسان بحيث لو أمضى عمره كله ساجدًا عابدًا لما أوفى بما قدمه الله تعالى له، كما يمنحه القوة والشجاعة بحيث لا يغريه ما يكسبه ولا يحزنه ما يفقده، وإنما هو واثق من أن ما يأت به الله أفضل مما يفكر هو فيه، وبهذا لا يفقد الرضا والسكينة .



[١٧]
«لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ»(*)

يتنزل القرآن من سماواته ليخاطب الإنسان، وليعلمه ويهديه، ويقف منه موقف المعلم من الطالب، ويتحدث إليه كما يتحدث المعلم مع طالب جاهل ومشاكس فلا ييأس أنه يضـرب له الأمثال، ويكشف له عما ينتظره في الآخرة من ثواب وعقاب، ووسيله القرآن وطريقته طريقة فريدة في تذكير الإنسان، وفي التغلغل إلى أعماقه وفي ترغيبه وترهيبه بحيث يخلص في النهاية مما هو فيه من الضلال، ويحدث هذا في أسلوب جزل قوي متمكن غاية التمكن بحيث تتنافس البلاغة في المبنى مع النبالة في المعنى «مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ❖ لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ».

هذا الأدب الرفيع يساق بهذا الأسلوب الأنيق ويدخل النفس دخولاً رفيقاً، إن طريقة القرآن في الهداية أعظم من أن تكون ما في الأسلوب من فخامة، ولكن في الثقة والتأكيد التي لا تفسح مجالاً للشك، فينتهي الأمر بالإيمان.

ولو أن الدعاة والمعلمين طالعوا القرآن مرة بعد أخرى لاكتسبوا من روح الثقة وعمق الإيمان ما يعطي أقوالهم قوة، وما يجعل لها نفاذاً، فالمسألة ليست البلاغة كما يصفها اللغويون، ولكنها قبس من قدرة الله وشعاع من أشعة نوره الثاقب.

وانظر إلى هذا السطر الصغير «لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ»، فإنه يحذرهم من الأسى لما قد يكون فاتهم أو ما خسروه، وفي الوقت نفسه يحذرهم أن يستخفهم الفـرح بما يكسبوه، وكان يمكن أن يأخذ منه صفحات وصفحات.

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم»، العدد (٢٦٢١)، بتاريخ ٢٠١١/٨/١٧م.

[١٨]
«لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ»(*)

- ١ -

هذه الآية السادسة والأخيرة من سورة الكافرون ترسي مبادئ على أعظم جانب من الخطورة والأهمية، وتحدد العلاقة ما بين الإسلام وبين بقية الديانات .

وهي تبدأ بتوجيه إلهي للرسول بأن يقول إنه لا يؤمن بأديانهم، وإنهم لن يؤمنوا بالإسلام، وتكرر هذا المعنى لتنتهي بالنهاية «لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ» .

«قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ❖ لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ❖ وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ❖ وَلا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدتُّمْ ❖ وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ❖ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ» .

وليس هناك مبرر لتكرير الآية ذات المعنى الواحد إلا أنه مؤشر على أهمية خاصة تستحق التكرير .

لقد أثار اسمها «الْكَافِرُونَ» حساسية لدى بعض الأقباط، وهي حساسية لم يكن لها داع، لأن معنى «الْكَافِرُونَ» لا يتضمن سبًا أو قذفاً وإنما معناه الذين لا يؤمنون بالمعتقد الذي يؤمن به الآخر، فالمسلم يُعد كافرًا بالنسبة للمسيحي، والمسيحي يُعد كافرًا بالنسبة للمسلم، وقل مثل ذلك بالنسبة لكل الأديان ، والآية تريد أن تقول كل الذين لا يؤمنون بالإسلام، فهل كان لازمًا أن تقول أيها المسيحيون، أيها اليهود، أيها البوذيون، أيها الهندوكيون وتأخذ في سرد الباقي بالاسم .. إلخ، فضلاً عن ملل ونحل ستظهر بعد الإسلام .

من أجل هذا كان لابد للقرآن أن يقول «يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ» .

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم» ، العدد (٢٦٢٢) ، بتاريخ ٢٠١١/٨/١٨م .

إن هذه السورة على قصرها تقدر المبادئ الآتية :

أولاً : أن غير المسلمين لن يكونوا مسلمين .

ثانيًا : أن المسلمين سيظلوا مسلمين ولن يغيروا دينهم .

إذن «لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ» ، وهذه بدورها تعني :

(أ) تقرير تأبيد التعددية الدينية واستمرار الحالة الراهنة Status quo .

(ب) أن تقوم العلاقات ما بين الأديان المختلفة على أساس التعايش واحترام كل واحد للآخر، وهذا هو الحل الأمثل، لأن البديل الآخر هو المشاكسة والعداوة والحرب ولا يمكن أن يكون أساسًا لمعايشة .

وأعتقد أن المسلمين - وإن لم يقدروا هذه السورة قدرها - فإن مسلكهم بصفة عامة كان تطبيقًا لها، وإن لم تجعلهم يفهموا أن المسلم المرتد لا عقوبة عليه ولا كلام فيه، فهذه إرادته وهو المسئول عنها، وهذا ما يصدق على المسيحيين أيضًا .



[١٩]
«لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ» (*)

- ٢ -

إن استلهام هذه الآيـة لا يقف عندما انتهينا إليه في كلمة الأمس ألا وهي تأبيد التعددية الدينية، وجعل العلاقة ما بينها على أساس التعايش الودي ومبدأ «لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ»، ذلك لأننا لو مددنا توجيهات السورة لوجدنا أنها تمتد لكي تمنع التبشير من ناحية المسيحية والتبليغ من ناحية المسلمين، لأن هذا وذاك لن يكون لهما إلا أثر - سيئ - لأن كل واحد منهما لابد وأن يتضمن عناصر تميز لدين على دين ، وهذا ما يخالف مبدأ التعايش الودي ويجب أن يتنازل المسلمون والمسيحيون عن فكرة التبشـــير العزيزة عليهم والمسيحيون بوجه خاص يرون أن التبشير أساس المسيحية «الويل لي إن لم أكن مبشرًا» بطرس، كما يتصور المسلمون أن المسلم عليه أن يعرِّف بدينه، وهذه التوجيهات كانت معقولة ومبررة في الأيام الأولى لكل دين، ولكن الأديان نجحت وبسطت سلطانها على دول بعينها كما قد يثير النظر أن المسيحية لم تمد تبشيرها إلى اليهود مع أنهم أولى الناس بهذه الهداية، وأن المسيح قال «إنما بعثت لهداية خراف بني إسرائيل الضالة» .

وليس معنى هذا أن يكون حديث فريق إلى فريق آخر عن الأديان «تابـو» لأن من الممكن الإشادة بالسيد المسيح وبالرسول محمد وبدورهما العظيم في إشاعة الخير، ويمكن أن يدور الحديث حول جانب مثل الرهبنة في المسيحية والتصوف في الإسلام كما يمكن الحديث عن عناصر الاتفاق في الأديان وهي أكثر من عناصر الاختلاف، والمهم في هذا كله أن يصدر عن روح طيبة خيرة وعلى مستوى أعلى من المستوى الشائع والذي يشوبه دائمًا ما يكدر

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم» ، العدد (٢٦٢٣) ، بتاريخ ٢٠١١/٨/١٩م .

صفوها، وعلينا أن نؤمن أن طيبة القلب وسلامة النفس هما أهم مقصد في الأديان .

وقد ثار كلام كثير عن الحوار بين الأديان، ولكنه لم ينجح وكان لابد أن يفشل لأن القائمين عليه هما المؤسستان الدينيتان، والمؤسسة الدينية هي آخـــر مكان يلتمس فيه الإنصاف والعدل والموضوعية لأنها ليست إلا المحامي الرسمي للديانة، ولهذا لم تنجح المحاولات بين الأديان، والمفروض أن يقوم بها أحرار الفكر الديني من المسيحيين والمسلمين وأن تتناول القيم العليا التي استهدفتها الأديان مثل السلام ـ الخيــر ـ المعرفة ـ مقاومة التعذيب ـ مقاومة الحروب .. فهذا هو المدخل السليم والناجح للحوار بين الأديان .



[٢٠]

«إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً»(*)

جرت العادة في أوروبا وأمريكا بأن يقولوا لكل من يأخذ إجازة أو يبدأ رحلة «استمتع بوقتك»، لأن الاستمتاع بالوقت يكون أهم ما يُحرص عليه في هذه المناسبات ولعلهم يقيمون معادلة ما بين العمل المرهـق في المصانع والمكاتب وما في الإجازة من استرخاء واستمتاع .

وليس في الإسلام ما يمنع ذلك، ولكن الإسلام يُذكر الإنسان دائمًا «وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً»، فلعله محتاج إلى هذه التوصية أكثر من «استمتع بوقتك» الذي سيفعله بالفعل بحكم الإجازة أو الرحلة .

إن نقطة الإبداع في الآية هي «وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ» التي تقيم أحكامًا أو تعرض مفاهيم مما «لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ» فتسيء إلى الحقيقة وقد يلحق الضرر بناس، إن المؤمن يجب أن يكون كيسًا فطناً يقف عندما يوقفه الحق .

وهي توضح أن الإنسان مسئول وأن كل شيء يقوله أو يفعله ، بما في ذلك «خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ»، وأنه سيحاسب عليه يوم القيامة حسابًا يضم كل صغيرة وكبيرة، كما أنه سيثاب بكل صغيرة أو كبيرة في عمل الخير كائناً ما كانت بحيث لا يظلم «مِثْقَالَ ذَرَّةٍ»، وكيف يظلم وفي الحساب الإلهي تحسب السيئة بسيئة واحدة بينما تحسب الحسنة بعشر أمثالها وقد تصل إلى سبعمائة .

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم» ، العدد (٢٦٢٤) ، بتاريخ ٢٠١١/٨/٢٠م .

فالله تعالى حريص على عباده، وهو عندما سن الثواب والعقاب فذلك لأن أمور الدنيا كلها لا تسير أو تنتظم إلا على أساس الثواب والعقاب .

وقد يتصل بهذا أن الله تعالى يريد من المؤمنين أن يكونوا من الواعين لا الغافلين، ومن المحسنين لا المسيئين .

ويتجلى النظم الموسيقي في جمع كلمات متجاويات تكاد تكون متحابة «إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ» واستخدام صيغة المصدر واتساق الآية مع الآيات التي سبقتها والتي لحقتها مما يجعل السورة كلها تتجاوب وتتماشى تمامًا مع الآيات التي سبقتها والآيات التي لحقتها والتي تجعل هذه السـورة عقدًا نظيمًا ويتلاقى السياق والأسلوب بالأوامر والنواهي دون أي نشوز وهذا بدوره هو مما يسهل حفظها ويثبتها في الفؤاد وعلى اللسان .



[٢١]
«وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ»(*)

هذه هي شيمة جماهير عديدة من الناس، دق عليها سر الوجود فتصوروا أن مجرد مرور الأيام والشهور هي التي أوجدتهم وهي التي أطلقوا عليها «الدهر» أو الطبيعة التي يطلق عليها «نيتشر» وهي الكلمة الأولى في الرسالة التي كتبها السيد جمال الدين الأفغاني بعنوان «الرد على الدهريين».

وقد انتقد القرآن هذه القالة ورفض أن تكون علمًا «وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ» في حين أن أصحابها يظنون أنهم حلوا بها مشكلة الوجود وتخلصوا من فكرة «الله» وما توجبه عليهم من تبعية والتزامات، وهذا هو مضمون «العلمانية» في أعمق تفسيراتها أو ما يقال إنها «الدنيوية» إشارة إلى الحياة الدنيا، وهو التفسير الذي ترفضه الأديان جميعًا لأنه يتحلل من فكرة «الله» ويضع تعبيرًا مجردًا هو الدهر أو الطبيعة يحتمي وراءه.

ولك أن تتصور المدى البعيد بين فكر لا يرى في الوجود إلا الحياة الدنيا ، وأنه لا يعيش إلا حياة واحدة، فهو لا يرى التزامًا أو تبعة من أي نوع، وهو حر بالتالي وعليه أن يستمتع قدر طاقته فليس إلا حياة واحدة، وفي ظل هذا الانفلات من الالتزام أو الانتماء فإن كل نوع من السلوك يحقق النجاح يُعد أسلوبًا مقبولاً ولا غضاضة عليه.

أما زيف دعوى «الدهرية» أو «الدنيوية» التي لا تعترف بإله، وإنما الأمر للطبيعة، فيتضح لو تساءلنا هل في هذه الطبيعة عقل، أو أنه ليس لها شيء منه، فإذا كان لها عقل فإنها تكون تعبيرًا فجًا

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم»، العدد (٢٦٢٥)، بتاريخ ٢٠١١/٨/٢١م.

عن الله، وإذا لم يكن لها عقل فكيف تتوصل إلى خلق أعظم وأدق المخلوقات، وهل يتلاءم هذا مع طبيعة الأمور ؟

المفارقة المدهشة أن الذين يدعون هذه الدعوى هم في حقيقة أمرهم أول من يفترض ضمناً أن كل ما في الوجود من إحكام وفائدة وجمال ودقة يتطلب وجود خالق يمثل النهاية في الكمال والقدرة، ولكنهم لا يريدون الاعتراف بذلك، لأن ذلك سيفرض عليهم الاعتراف بالتزامات وهم لا يريدون شريكاً، فضلاً عن سيدٍ أو إلـهٍ ولهذا يعيشون المفارقة التي أشرنا إليها، عالم عجيب في إعجازه ودقته دون الاعتراف بخالق لهذا الإعجاب والدقة .



[٢٢]
«إنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً»(*)

في آية أراد الله تعالى أن يصور طموح الإنسان وتصديه لما تعجز عن التصدي له الأرض والسموات والجبال قال «إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً» .

وقد كان ختام هذه الآية مما أثار في نفسي حيرة لبعض الوقت، فالله تعالى هو الذي اختار الإنسان خليفة له، مما يفترض فيه الكمال، أو ما يقرب من الكمال، ولكن الآية تفاجئنا بأن الإنسان ظلوم جهول، لأن طموحه يفرض عليه تحديات قد يسيء في تحقيقها .

خذ مثلاً استطاع ميكانيكي بريطاني في أوائل القرن التاسع عشر وبفضل المصادفة أن يكتشف أن البخار الذي يتصاعد نتيجة لغلي الماء إذا حبس ووجه فإنه يكون قوة مركزة، وأن هذه القوة يمكن أن يستخدمها في إدارة الآلات فظهر القطار البخاري وآلة النسيج الميكانيكية وأطلق على هذا الاكتشاف الثورة الصناعية لأنه اكتشف طاقة يمكن أن تعمل ليل نهار لا تكل ولا تمل مادام تحتها نار تشتعل وبخار يتصاعد .

وبهذا استنقذت هذه القوة عمال النسيج وهي الصناعة الأولى التي استخدمت فيها قوة البخار، وظهر روبرت أوين وهو يبشر العمال أنهم لن يعملوا بعد اليوم إلا أربع ساعات لأن إنتاج هذه الساعات الأربع يعادل إنتاج اليوم كله وسيكون عليهم أن يقضوا بقية اليوم في التنزه أو القراءة وممارسة الهوايات المحببة .

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم» ، العدد (٢٦٢٦) ، بتاريخ ٢٠١١/٨/٢٢م .

وكان هذا ادعاءً حقيقيًا لولا أن أصحــاب المصانع قالوا لأنفسهم ولماذا لا يشتغل العمال كما كانوا يشتغلون من قبل ؟ ونكتنز الأرباح الكبيرة لكي نكبر المصنع وننهض به .

وصنع أحد العلماء لعمال مناجم الفحم مصباحًا إذا انطفأ دل ذلك على عدم وجود الأكسجين الذي يعرضهم للاختناق ولكن هذا جعل أصحاب المناجم يحفرون لأعماق أبعد مما يعرض المناجم للانهيار ويصبح المنجم مدفناً للعمال .

وأسوأ من هذا كله .

كان سيدنا سليمان قد طلب من الله أن يعطيه معجزة لم يعطها لأحد من قبله، فأعطاه الله بساط الريح الذي مكن سليمان أن يطير في الهواء، ولم يتكرر هذا حتى تصدى إخوان رايت لصنع طائرة من خشب وذات محرك .

وتقدمت صناعة الطيران حتى أصبحت الطائرات قصورًا طائرة

وبالطبع فإن هذا خدم البشر خدمة عظيمة ولكنه عند فترة أصبح لعنة البشرية، فهذا الاختراع جعل الحرب تجري في السماء، وجعل من الممكن أن تدمر الطائرات بالصواريخ والقنابل مدناً بأسرها وتبيد سكانها من رجال ونساء .

ومع التقدم أصبحت صناعة التسليح هي أكبر صناعة في الولايات المتحدة وأصبح الاقتصاد العالمي رهن بالاقتصاد الأمريكي الذي أصبح رهناً بصناعة التدمير والهلاك .

فهل هناك جهلٌ وظلمٌ أعظم من هذا ؟

ولماذا يسمح الإنسان أن يطلق العنان لغريزته، وأن يستغل كل علمه في القتل والتدمير فيصبح العلم أسوأ من الجهل، ويصبح الظلم وليس العدل هو ما يعمل له .

من هنا كان الإنسان «ظَلُومًا جَهُولاً» .

[٢٣]

«وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لا تَظْلِمُونَ وَلا تُظْلَمُونَ»(*)

ـ ١ ـ

كان الربا في الزمن القديم هو الطريق لاستعباد الفقراء، ذلك أن الفقير عندما يقترض فإنه لا يقدم ضماناً لأنه لا يملك شيئاً، وبالتالي يكون جسمه هو الشيء الوحيد الذي يمكن لدائنه أن يضع يده عليه، وكان من حقه أن يقتله أو يسجنه أو يشغله سنين عددًا، وكان هذا مطبقاً في روما القديمة، كما كان مطبقاً في مكة في عهد الرسول فقد كاد بلال أن يسترق عندما أغراه أحد المشركين بالاقتراض منه وحان الأجل وليس في يده حتى استنجد بالرسول فأعطاه ما سدد به الدين، من أجل هذا حرم الإسلام الربا وأعلن أنه حرب على الله ورسوله.

وحدد القرآن بصرامة فإن «تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لا تَظْلِمُونَ وَلا تُظْلَمُونَ».

فيبن بهذه الآية أن على اصحاب القروض أن يأخذوا من المدين رأس المال الذي اقترضه حتى لا يُظلم المدين، ولكن الآية ذكرت بعد ذلك «وَلا تُظْلَمُونَ» بضم التاء.

وقد عجز المفسرون عن تفسير «تُظْلَمُونَ» الثانية إذ لم يروا وجهًا لأن يظلم الدائن مادام قد استوفى دينه وحدث هذا لأن الآية كانت تومئ إلى عهد جديد لم يكن للعرب أو البشرية عهد به وقتئذ.

ففي هذا العهد كانت المعاملات تتم بقطع ذهبية أو ماشية أو سلع.

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم»، العدد (٢٦٢٧)، بتاريخ ٢٠١١/٨/٢٣م.

كانت القيمة للأشياء والسلع تظل ثابتة، ولكن عندما استبحر العمـران وتضخمت المداولات، ظهر أن كميات الذهب المتاحة للتداول أقل ولا تكفي سـد حركة تداول البيـع والشراء فأعلنت الدولة بأنها ستطبع أوراقاً نقدية بضمان الحكومة، وظهرت الأوراق المالية بفئات بدءًا من جنيه حتى مائة جنيه مختلفة الأثمان والأجور سدت حاجة التعامل بحيث لم يختل ميزان التعامل ما بين البيع والشراء .

ولكن بعد فترة اتضح أن ما أصدرته الدولة من عملات ورقية أقل من أن يفي بحاجة السوق، وعندئذ تقدمت البنوك وأخذت تقدم عملات ورقية هي الشيكات التي أعطتها الدولة صفة الإبراء، بل أنها عندما توصلت إلى فكرة «الكريدت» فإنها أغرقت السوق بالعملات .

ولكن حديث ذلك أمر يطول فإلى الحلقة المقبلة .



[٢٤]
«وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لا تَظْلِمُونَ وَلا تُظْلَمُونَ»(*)

- ٢ -

وقف بنا الحديث عند الأموال العديدة التي قدمتها البنوك قروضًا في حماية ما أطلقت عليه «الائتمان» وأغرقت الأسواق به، وشرح ذلك أمر يطول لأنه يفسر سر معاملات البلايين بعد الملايين، ويكون علينا أن نعود للوراء قروناً فنجد أن بعض الحكام أو التجار الأغنياء يرسلون بذهبهم إلى الصاغة طلبًا للأمن وفرارًا من المصادرة أو الضرائب .. إلخ، وكان هؤلاء الصاغة من الذين يقدرون سر المهنة وقداستها بحيث نمت العملية نموًا كبيرًا شجع هؤلاء الصاغة أن يتحولوا إلى «بانكير» أي رجال بنوك، والفرق بين الرأسمالي والبانكير أن الأول يتعامل في أمواله أما البانكير فهو يتعامل بأموال غيره، تفتق ذهن هؤلاء «البانكيرات» في إصدار بطاقات كل بطاقة بخمسة جنيهات أو بعشرة جنيهات .. إلخ، وأرسلوا هذه البطاقات إلى الحكام والتجار لقاء أموالهم المودعة وعندما يريد أحد العملاء مبلغاً فإن عليه أن يرسل عددًا من البطاقات مع رسول فيعود إليه بذهبه، وبالخبرة والممارسة والتجربة ظهر أن المودعين لا يطلبون إلا جزءًا محدودًا من أموالهم، وهذا طبيعي لأنهم إنما أودعوا الأموال كنوع من التوفير وحماية المال من السرقة أو المصادرة وظهر لرجال البنوك أن ما يصرفونه لا يمثل إلا ٢٠ ٪ من الأموال المودعة عندهم فأخذوا يقرضونها، بل وصلت بهم الجرأة أن اعتبرت الأموال التي قدمت إليها «ودائع» يمكن تسليف أضعاف أضعافها .

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم»، العدد (٢٦٢٨)، بتاريخ ٢٤/٨/٢٠١١م .

ومن ناحية أخرى كان أصحاب المصانع يتوسعون في أعمالهم بعد أن أحكموا الطريقة التي تحقق لهم ربحاً وفيرًا كان في حقيقته سرقة من قيمة عمل العامل بحيث اختل التوازن ما بين العرض والطلب، ما بين الأجور والأثمان، لأن جزءًا من أجور العمال اغتصبت وأضيفت إلى الأرباح وهذه الصورة من صور التناقض مغروسة في صميم الرأسمالية، ولا يكشف عوارها إلا عند الأزمات أو حدوث أحداث غير عادية .

وتلاقت في السوق أموال لا حـــد لها مما تضخه البنوك والمؤسسات الصناعية والتجارية، ولكن لا يقابله عمل أو إنتاج، وكانت النتيجة هي ما يسمونه «التضخم» والاختلال ما بين عرض السلع والمنتجات وما بين الأموال التي تكفي لامتصاص هذه السلع التي تمثلها الأجور التي اختلس الرأسماليون جزءًا كبيرًا منها لأنفسهم، ولكن النقود المتاحة في السوق وهي قيمة الأجور المبخوسة نتيجة للاستغلال الرأسمالي محدودة فظهرت ظاهرة «الركود» أي زيادة العرض على الطلب أمام الأجور، وحين تطبع البنوك المزيد والمزيد من أوراق العملة وتصل هذه الأوراق إلى أيدي الناس تظهر ظاهرة التضخم أي ارتفاع الأسعار بسبب زيادة على العرض، وفي هذه الحالة لو أن شخصًا اقترض مائة جنيه لمدة ثلاث أعوام وبعدها دفعها لصاحبها لكان من حق هذا الصاحب أن يقول لقد ظلمتني فالمائة جنيه كانت تشتري منذ ثلاثة ســـنوات جاكت وبنطلون ولكنها الآن لا تشتري سوى جاكت وعليك أن تعطيني الفرق بحيث أستطيع أن أشتري به البنطلون .

ومعنى هذا أن الزيادة في الدين نسيئة وهي أصرح أنواع الربا تحريمًا لم يعد كذلك عندما ارتفق عليها عامل هو التضخم ، وأن القرآن قد تقبل هذا عندما اعتبر أن المُقرض يكون قد ظُلم عندما أخذ رأس ماله فحسب، وهذا التفسير يختلف تمامًا عن التفســـير المأثور والمشهور وإذا أخذ به فلا يكون هناك فرق ما بين بنك ربوي وآخر غير ربوي مادامت الزيادة تكون بنسبة التضخم .

[٢٥]
«أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ»(*)

في ثمان كلمات يحسم القرآن قضية الخلق والوجود، وفي الصحيحين عن جبير بن مطعم قال سمعت رسول الله يقرأ في المغرب بالطور فما سمعت أحدًا أحسن صوتاً أو قراءة منه، فلما سمعته يقرأ «أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ»، خلت أن فؤادي قد انصدع، وكان جبير حين سمع هذا لا يزال مشركاً وإنما كان قد قدم في فداء الأسارى بعد بدر، وكان الرسول نفسه يعيش هذه الأحاسيس عندما يسمع هو القرآن الكريم كما في الواقعة المشهورة عندما طلب إلى عبد الله بن مسعود أن يقرأ عليه سورة النساء حتى جاء إلى «فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا»، فقال: حسبك، فالتفت إليه فإذا عيناه تذرفان [أخرجه البخاري ومسلم].

وكان هذا امرًا معقولاً ومنتظرًا، فها هو القرآن بمنطقه السهل وفي الوقت نفسه القاطع كنصل حاد يسأل المشركين، وها هو الرسول يقرأ آية تنزلت للتو من السماء تسأل المشركين «أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ»، أي أنهم خلقوا أنفسهم بأنفسهم.

هذا هو «صوت القرآن» يكاد يكون بديهيات لا يحتاج إلى مجلدات في الفلسفة وفي الوجود.

إن اللاهوت الإسلامي يقوم على أمرين:

الأول: هو وجود الله تعالى.

الثاني: وحده الله تعالى.

أما الأولى فقد عرضتها الآية سورة النور السابعة.

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم»، العدد (٢٦٢٩)، بتاريخ ٢٠١١/٨/٢٥م.

أما الثانية فقد عرضها القرآن «وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ»، لو كان فيها آلهـــة غير الله لَفَسَدَتْ الأَرْضُ، وفي سورة الإخلاص «قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ❖ اللَّهُ الصَّمَدُ ❖ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ❖ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ».

أن الإسلام لم يكن أبدًا في حاجة إلى لاهــوت، ولا علم الكلام الذي هو استنساخ لفكر يوناني، ولا دلالة فلســفية أن الإسلام جاء للناس كافة، وهو لا يفترض أنهم يسلمون بقواعــد الفلسفة والمنطق وإنما يؤمن الناس بما تطمئن إليه قلوبهم، وما تنشرح به نفوسهم، وما تدركه بعقلها الفطري، وقد تلاقت فطرتهم مع الإسلام لأنه دين الفطرة.

لم يقدم الإسلام إثباتاً لوجود الله دليلاً إلا «الخلق» لأنه يعلم أن الخلق هو أوضح الدلالات وأعظم الإثباتات وإذا كان الأمر يتعلق بالسماوات والأرض وخلقهما فمن ذا الذي يقدر عليهما إلا الله.

ولكن القرآن في علمه بالناس· وما يطرأ عليهم، وكيف يفكرون قد يضرب المثل بأقل شيء «ذبابة» ويتحدى أن يخلق المشركون ذبابة، بل وأن يستنقذوا ما أخذ الذباب «يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمْ الذُّبَابُ شَيْئًا لا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ».

هذا هو لاهوت القرآن، إنه يسمو إلى السماوات العليا وينزل إلى ذباب الأرض ولكنه في جميع الحالات يفهم ويجعل من قصة وجود الله ووحدته أمرًا مسلمًا ولم يكن الإسلام، وهذه هي طريقته في حاجة إلى علم الكلام حيث وجود الله وكماله.



[٢٦]
«فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ»(*)

يوجـــه القرآن الكريم خطابه للنـــاس جميعًا، إنه ليس كالطبيب الذي لا يتعامل إلا مع المرضى، إن القرآن نزل لبني آدم «للبشر» على اختلاف ألسنتهم ومشاربهم وأفهامهم، وقد يوجه في بعض الحالات حديثه لأكابر مجرميها بما يتفق مع ما يحدثون من فساد، وقد يسوق الحديث عن «مقتصد» وهو الذي يؤدي المفروض من العبادات دون أن يزيد عليها أو عن سابق للخيرات ومنهم البحار الذي نشر قلوعه واندفع في البحر العميق لا يخشى عاصفة ولا يثنيه موج، القرآن يتعامل مع هؤلاء جميعًا ويخاطب كلاً بما يطيقه ، كما يرسم له طريق الاستغفار والتوبة عندما يجد أنه «ظلم نفسه» بهذه الذنوب، والقرآن يتقبل الجميع بما فيهم من خلط عملاً سيئاً بعمل حسن، ويلتمسون عطاء الله «وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا»، منهم من يريد حرث الدنيا ومنهم من يريد حرث الآخرة، والله تعالى يشرق شمسه على الجميع ويُنزل غيثه على الجميع .

إن ما يمكن أن نفهمه من هذا أن وجود مستويات مختلفة ، ووجود أشرار وأخيار، عاملين ولاهين يُعد هو الوضع الذي لابد أن يوجد في كل مجتمع، قد تختلف النسب أو الدرجة ولكن النوعية هي هي، وما علينا أن نقول لمن أحسن أحسنت ولمن أخطأ فاتك التوفيق .

وقد لفت انتباه بعض المفسرين تقديم الذين ظلموا أنفسهم، وبعدهم يأتي المقتصدون، وفي النهاية يأتي المحسنون، وفيما أرى فإن القرآن قد لاحظ النسب العددية، ونحن عادة نرى أن «ظالمي أنفسهم» يمثلون الأغلبية ويأتي بعدهم المقتصدون وآخر من يأتي السابقون بالخيرات، فالمجتمع كهرم قاعدته العريضة من الذين ظلموا أنفسهم يتلوها طبقة من المقتصدين وأخيرًا يأتي في القمة السابقون بالإحسان، وفيما نرى فإن القـرآن قد قدم تصويرًا حقيقيًا للمجتمع البشري، وتتضح كل أبعـاد الصورة عند إبراز فكرة المقاصة، والعفو، عند التحاكم يوم القيامة .

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم» ، العدد (٢٦٣٠) ، بتاريخ ٢٠١١/٨/٢٦م .

[٢٧]

«وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ»(*)

ارتبطت الأديان في الأذهان بطقوس صعبة فهي تتطلب أولاً نظافة جسدية بالماء حتى يمكن أن يمارس الصلاة التي بدورها لها شروط خاصة عديدة، أما الحج فهو قضية أخرى يغير الإنسان فيها بلده ويهجر عاداته ولا يضع على جسده إلا رداءً أبيض مجرد، وعندما يكون الصوم في الحر فإنه يجعل الألسنة جافة، وهناك بعد الإحسان إلى الجار والإنفاق من المال .

نقول إن هذه قربات إلى الله ولا يلزم هذه الأعمال أو بين يديها مشقة خاصة ، وهي بعد مفيدة للصحة .

على أن الإسلام الذي يقدر ظروف الإنسان أوجد لكل من يجد صعوبة حلاً .

وقد قال الأستاذ عبد الرحمن الشرقاوي في كتابه «أئمة الفقه التسعة» عند حديثه عن الشيخ عز الدين بن عبد السلام «ويجوز التيمم للمشقة كالخوف من حدوث المرض من ماء الوضوء أو إبطاء الشفاء أو إذا غلا ثمن الماء وأصبح الحصول عليه مشقة أو إذا احتاج الإنسان إلى ثمنه في سفر أو نحوه، ويجوز للمرأة أن تتيمم بدلاً من الوضوء بالماء إذا كان الماء يؤذي جمال وجهها كأن يظهر من أثر الوضوء في الشتاء ما يشين ، هذا إذا كان الوضوء يؤثر على جمال المرأة في وجهها، وأجاز لها الشافعي أن تتيمم» .

بل إن من الممكن الجمع بين الصلاتين (الظهر والعصر أو المغرب والعشاء) إذا كان ذلك دفعًا للحرج أو المشقة، وروي أن الرسول فعل ذلك، فلما سئل قال «لكيلا أشق على أمتي»، وفي رواية «أراد أن لا يحرج أحدًا من أمته» .

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم» ، العدد (٢٦٣١) ، بتاريخ ٢٠١١/٨/٢٧م .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله وقف في حجة الوداع بمنى فجاء رجل فقال لم أشعر فحلقت قبل أن أذبح، قال إرم ولا حرج، فجاء آخر فقال لم أشعر فنحرت قبل الرمي، فقال إرم ولا حرج، فما سئل النبي عن شيء قدم أو أخر إلا قال افعل ولا حرج.

وعن أسامة بن شريك قال خرجت مع رسول الله حاجًا، فكان الناس يلقونه فمنهم من قال يا رسول الله سعيت قبل أن أطوف أو أخرت شيئاً، أو قدمت شيئاً، فكان يقول «لا حرج إلا على رجل اقترض عرض مسلم وهو ظالم، فذلك الذي حرج وهلك».

ومعروف بالطبع عندما أخبر أحد الناس الرسول أن سعد بن معاذ يطيل الصلاة بالناس فقال له «أفتان أنت يا سعد ؟ إن هذه الصلاة يشهدها الكبير والصغير والمريض».

وأفتى الشيخ محمد زكي إبراهيم بجواز الوضوء وعلى الأصابع «المانيكير»، وأنه بنى تحليله على سلسلة من القياس.

وكيف يمكن القول أن الدين فيه حرج وآيات القرآن الكريم صادعة :

«لا تُكَلَّفُ نفسٌ إلاَّ وُسعَهَا» (البقرة : ٢٣٣)

«لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نفسًا إلاَّ وُسعَهَا» (البقرة : ٢٨٦)

«لا نُكَلِّفُ نفسًا إلاَّ وُسعَهَا» (الأنعام : ١٥٢)

«لا نُكَلِّفُ نفسًا إلاَّ وُسعَهَا» (الأعراف : ٤٢)

«ولا نُكَلِّفُ نفسًا إلاَّ وُسعَهَا» (المؤمنون : ٦٢)



[٢٨]

«وَإِنَا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ»(*)

لا شيء يمثل السماحة وحرية الفكر مثل الموقف من الآخر .

والموقف الإسلامي من الآخر أجمله التعبير المشهور «كلامي صواب يحتمل الخطأ .. وكلامك خطأ يحتمل الصواب»، وهو فيما نرى أقصى ما تحتمله الطبيعة البشـــرية في هذا السياق، ولكن القرآن الكريم يكشف لنا عن بُعد آخر جديد هو أن من الممكن أن نكون على هدى معًا، كما أن من الممكن أن نكون معًا على ضلال .

فقد نظر القرآن نظرة إلى عناصر الاتفاق التي يغلب أن تكون في كلام الاثنين، فركز عليها بدلاً من أن يركز على عناصر الخلاف، وهذا توجيه ثمين في عالم الفكر ولم يتنبه إليه أحد من المفسرين أو الكتاب في حين أنها إضافة منشئة .

على أن القرآن لا يكتفي بهذا، فهو يمضي في تطمين صاحبه «قُلْ لا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ»، ولاحظ تعبير «أَجْرَمْنَا» التي يقابلها بالنسبة للآخر «تَعْمَلُونَ» مما ينفي مظنة أي تحامل .

وأخيرًا «قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ»

إن هذه الآيات من سورة سبأ تفتح آفاقاً جديدة وتقدم أدبًا وتهذيبًا جديدًا، وماذا علينا لو فتحنا آفاق الاتفاق فنقرب بعضًا من بعض بدلاً من أن ننبش في نقاط الاختلاف التي تباعد بيننا .

إن متناظرين يؤمنان بالآيـــة لا يمكن أبدًا أن يختلفا وما يمكن أن يصل إليه الاختلاف من عداوة وبغض، إن السلام يسري

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم»، العدد (٢٦٣٢)، بتاريخ ٢٠١١/٨/٢٨م .

ما بين المتناظرين بفضل التنازلات التي تتضمنها، ولا تدع حاجة للخلاف.

فإذا كانت هذه الآيات فتحًا في عالم العلاقة بالآخرين فإن من العجيب والمؤسف أن آخر الناس استخدامًا لها وانتفاعًا منها هم المسلمون الذين نلمس في كثير منهم ضيق الأفق وشدة التعصب، إنهم - باختصار - يعملون نقيض هذه الآيات وكأنهم من الذين قال عنهم القرآن «سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا»، وهي دليل لا يدحض على أن القرآن قد يكون في واد ويكون المسلمون في واد آخر.



[٢٩]
«الحق والعدل»(*)

تتردد هاتان الكلمتان بكثرة في القرآن الكريم ويحتلان أعظم منزلة، خاصة «الحق» الذي يرمز لله تعالى وهو أحد أسماء الله الحسنى ويشار إليه باعتبار أنه هو الله تعالى الملك.

«فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا».

«ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِ الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ».

ولم أعثر في اللغات الأوروبية على تعبير «الحق» بالمعنى الإسلامي، أي المجرد المطلق.

فالحق هناك هو «حقي» أو «حقك» أو «حق المجتمع»، ولعل هذا يعود إلى الطابع المادي والفردي لهذه المجتمعات التي تدين بالرأسمالية، وأن هذا نفسه من العوامل التي جعلت المجتمع الأوروبي يتجاهل فكرة «الله» وأحل محلها كلمة «الطبيعة»، واعتقد أن الطبيعة ليست في حاجة إلى الحق، أو رأى أنها وحدها هي الله، بحيث لم يُعد لله مجال.

أما كلمة «العدل» فإن القارئ للقرآن يخرج منها بفكرة أن العدل هو الجزء من الحق الذي يمكن تطبيقه لتكون قيمة مستلهمة من الحق بحيث لا يكون هناك معياران هما الحق والعدل، وإنما هو معيار واحد هو الحق، والعدل جزء منه وهو الذي يستخدم للفصل في الخصومات وفي الحكم وتتعدد الآيات التي تقرر الحكم بالعدل، وبأن لا يؤثر أي شَنَآنُ أو عثرة على العدل، ولذلك يقرن القرآن كلمة العدل بالحكم.

(*) نشر بجريدة «المصري اليوم»، العدد (٢٦٣٣)، بتاريخ ٢٠١١/٨/٢٩م.

«وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ» .

«وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيرًا» .

فالحكم بين الفرقاء بالعدل هو وصول إلى الحقيقة .

إن الحكم بالعدل هو المعيار الذي يفضل أي معيار آخر لأن الأخذ بغيره يعني جعل الظلم يحيق بأحد الطرفين، فالعدل ليس هو المعيار الأمثل، بل إنه الوحيد..



[٣٠]

«الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ»(*)

كان عبد الرحمن القس واعظ البصرة شابًا في مقتبل العمر، توفرت فيه صفات التقوى والورع الفطري، واستكملهما بقراءة القرآن والتعرف على سيرة الرسول، وكان مضرب المثل بين الشيوخ والشبان حتى لقب «عبد الرحمن القس».

ابتلى عبد الرحمن بحب سلامة، وهي الأخرى جارية ملمة بأحكام الدين وآداب الشرع، وكانت الجواري اللاتي تخففن من أحكام الحجاب والنقاب وسمح لهن بلقاء الرجال يمثلن سفيرات للآداب والفنون والشعر في هذا المجتمع دون إخلال بالأحكام العامة التي لابد منها والتي هي أشبه بالإطار الفسيح الذي يحول دون ذوبان المجتمع أو تآكله أو خروج عن حدوده.

شاع حب عبد الرحمن لسلامة وعرف ذلك وألحق بمجنون ليلى وجميل بثينة، وهو حب عذري يقوم على رؤية العين أو سماع الأذن أو تلاقي الأرواح وتوافق «الجينات»، وليس له علاقة مباشرة بأي ممارسة حسية.

ويومًا ما جمعت المصادفة ما بين عبد الرحمن وسلامة وتحدثا طويلاً، وفي النهاية قالت سلامة : أحب أن أقبلك، قال وأنا أيضًا، قالت : وأن أضع شفتي على شفتيك، قال وأنا أيضًا، قالت فما يمنعك ؟ قال «الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ»، ارتجف الاثنان لسماع الآية، وتملكهما الأسى العميق من قوة عظمى ظهرت لهما، كانا قد غفلا عنها في حميا العاطفة، فلما سمعاها غلبت قوة الإيمان وهج العاطفة، فترك كل واحد صاحبه وراءه.

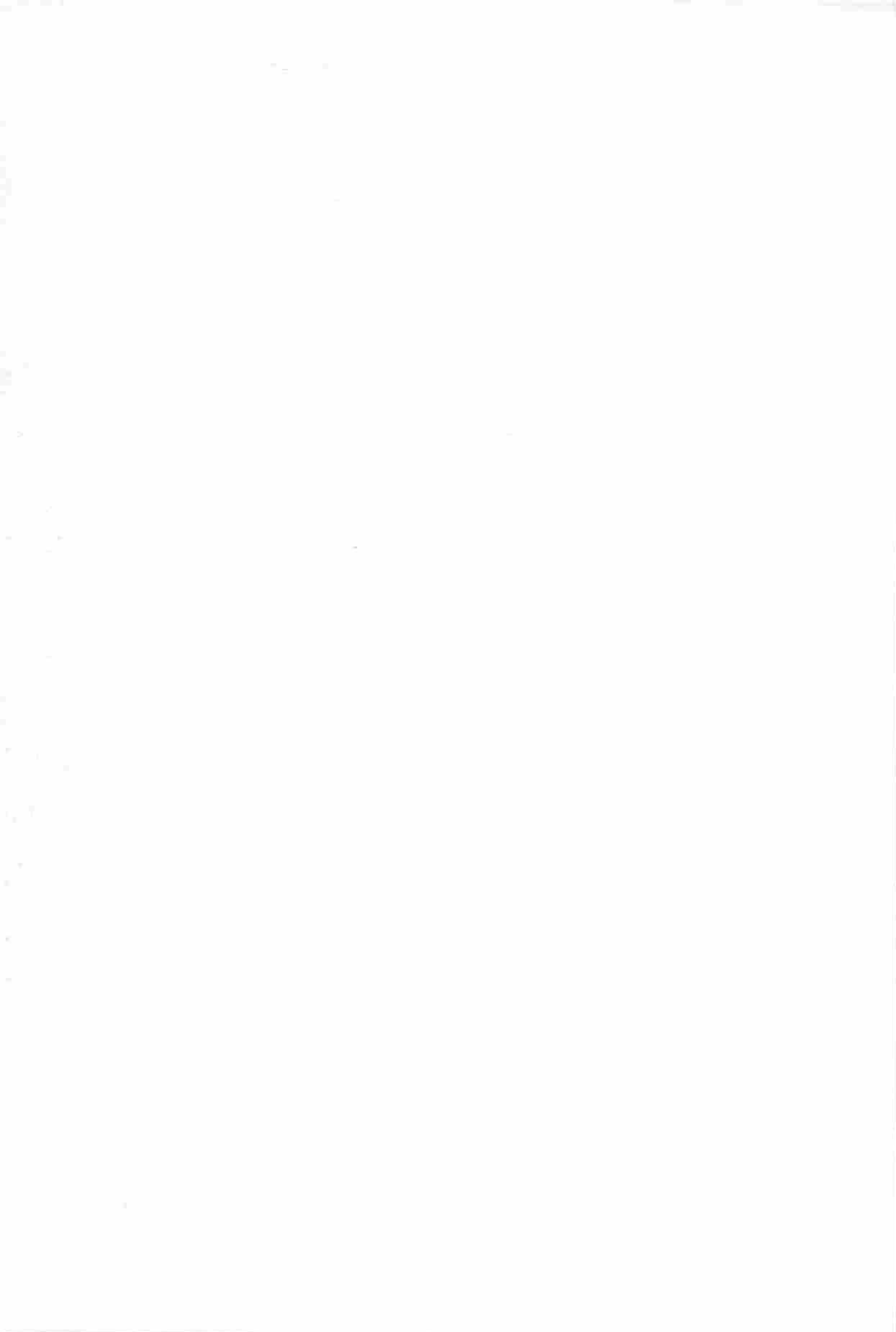
(*) نشر بجريدة «المصري اليوم»، العدد (٢٦٣٤)، بتاريخ ٢٠١١/٨/٣٠م.

لم تنل المحنة من إيمان عبد الرحمن، بل صقلته وأضافت إلى علمه وإيمانه حكمة، وكشفت له عن أبعاد أخرى، وآفاق كبرى عبر عنها في قوله :

قد كنت أعذل في السفاهة أهلها
فاعجب لما تأتي بـــه الأيـــــــام
فاليـــوم أعـــذرهم وأعـــــلم أنما
سبل الضلالة والهـــدى أقســـام



فهرس



هذا الكتاب

في مطلع عام ٢٠٠٩م طلبت جريدة «المصري اليوم» من الأستاذ جمال البنا ان يكتب عمودا يوميا بدء من اليوم الاول من شهر رمضان ١٤٣٠هـ - اغسطس/سبتمبر ٢٠٠٩م. وقد قام بذلك تحت عنوان «الهامات قرانية» وتكرر عامي ٢٠١٠ و٢٠١١.

وظفرت «الالهامات» باعجاب القراء. ورأى بعضهم طريقة جديدة للتعامل مع القران الكريم بعيدة عن طريقة التفسير المعهودة وكذلك عن الدراسات الحديثة التي تتناول جوانب من القران في دراسة طويلة موثقة.

ولما كانت دار الفكر الاسلامي حريصة على طبع ونشر كل ما كتبه الأستاذ جمال البنا. فانه ليسرنا ان نقدم «الإلهامات» الى القراء.

وعلى الله قصد السبيل ...

دار الفكر الإسلامي

الثمن ١٠ جنيهات